

## التورانيون والایرانيون

للدكتور طه ندا

يعترف العلماء الذين تفرغوا للدراسة تاريخ الترك بصعوبة هذه الدراسة ومرد ذلك إلى أسباب كثيرة يذكرونها ، منها كثرة القبائل والقرود التي يتفرع إليها هذا الشعب ، واتساع مساحة الأرض التي شغلها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب . وتعدد اللهجات التي يتكلمون بها تبعاً لتعدد المناطق والأقاليم التي يعيشون فيها . واختلاط هذا الشعب بكثير من الشعوب الأخرى التي خالطها أو عاش معها حاكماً أو محكوماً كالصين والفرس والعرب والهنود وغيرهم .

وقد ترتب على هذا الاختلاط بين الشعب التركي وغيره من الشعوب اختلاط الدماء ، وتداخل التواريخ ، وامتزاج اللغات والثقافات مما يوسع دائرة البحث على الباحث ويجعله في حاجة إلى كثير من أدوات البحث المختلفة التي لا تلزم في العادة لغيره من الباحثين في الموضوعات الأخرى .

والمتصدى لتاريخ الترك أو أديهم يجد صعوبة كبرى في هذه الدراسة لأنه محتاج إلى إجادة اللغة التركية . وحتى هذه اللغة نفسها تتفرع كما أشرنا إلى لهجات مختلفة تعقد الأمر أمام الباحث وتجعله في حاجة إلى مساعدة مجموعة من العلماء بهذه اللهجات المختلفة . ثم هو في حاجة إلى إجادة عدد آخر من اللغات ارتبطت بالتركية ارتباطاً وثيقاً وأثرت فيها وأهمها اللغة العربية واللغة الفارسية وما يتصل بهذه اللغات من تاريخ وحضارة وثقافة .

وقد يبدو أن إجادة لغة شعب من الشعوب تكفي لدراسة تاريخه ، ولكن هذا لا ينطبق على دراسة الشعوب التركية . فاللغة الصينية مثلاً مهمة في معرفة تاريخ الأتراك الذين عاشوا في أقصى الشرق في الصين ومنغوليا

وفى معرفة أخبارهم التي وردت فى المصادر الصينية . أما الذين اتجهوا إلى الغرب وخالطوا الفرس والعرب وتأثروا بالحضارة الإسلامية فالاعتماد على الفارسية والعربية أمر أساسى لمعرفة تاريخهم . ويلاحظ أن مصادر تاريخ الترك كانت تكتب حتى أزمنة متأخرة باللغة الفارسية . وعندما أخذ الترك يهتمون بلغتهم ويتخذونها لغة كتابة وتأليف لم ينقطع تيار الفارسية وظلت تشارك التركية .

ويشير بارتولد إلى هذه الصعوبات فيقول إنه ليس هناك بين الدول التركية ما يستمد تاريخه من مصادر تركية سوى الدولة العثمانية . وحتى هذه المصادر التي كتبت بالتركية تجبر الباحث على إجادة العربية والفارسية لأن اللغة التركية خليط من هذه اللغات . وكثير من الأثرak يصعب عليهم فهمها لهذا السبب (١) .

وهناك صعوبة أخرى تتمثل فى أن المصادر الخاصة بتاريخ الترك قد كتبت فى عصور متأخرة مما يعرض المعلومات الواردة فيها للشك فى صحتها نظراً للفروق الزمنية الواسعة بين تاريخ الوقائع الواردة فى هذه المصادر وبين تاريخ تأليف هذه المصادر نفسها .

وإذا أضفت إلى هذا قلة المصادر القديمة والوثائق تبين لك أن الأمر تكنتفه الصعوبات من كل جانب .

وأقدم الآثار الخاصة باللغة التركية تلك النقوش التي اكتشفت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على ضفاف نهر أرخون فى منغوليا وتعرف بين الباحثين بآثار أورخون . وهذه النقوش تشمل فترة ضائلة من تاريخ الترك تبلغ نصف قرن فقط من سنة ٦٣٠ - ٦٨٠ م =

وتشير هذه النقوش فى تلك الحقبة إلى تاريخ أتراك الشرق عندما كانوا

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ترجمة أحمد الحميد سليمان ص ٢

خاصة بين للصين . ورغم اكتشاف هذه النقوش منذ مدة إلا أنها لا تزال موضع البحث والدراسة . وما زالت ترجمتها موضع خلاف بين العلماء لصعوبة النص الأصلي الذي كتبت به تلك النقوش . ويقدم لنا بارتولد مثلاً من أمثلة الخلاف بين العلماء في ترجمة هذه النقوش كلمة مثل كلمة «تورك» التي اختلفوا فيها اختلافاً واسعاً فهي اسم قبيلة أو أسرة حاكمة أو معناها القوة أو العزم أو الجاعة المتحدة .. الخ . (١) وكل هذا الخلاف قائم حول معنى كلمة واحدة فكيف يكون الخلاف بالنسبة لمجموعة النقوش كلها .

ويرى بارتولد أن الشعب التركي وإن كان موجوداً منذ أقدم العصور إلا أن كلمة تورك لم تستعمل في رأيه للدلالة على هذا الشعب قبل القرن السادس ويرجح ان تكون هذه اللفظة «تورك» اصطلاحاً إسلامياً (٢) .

وبناء على ما يراه بارتولد لا مانع لدينا في أن نخص بهذه اللفظة (تورك) الأتراك الذين عاشوا في العصور الإسلامية . أما الذين عاشوا قبل ذلك أي في العهود القديمة حيث غلبت على تاريخهم الأساطير فسنطلق عليهم اسم التورانيين . والغرض من هذا مجرد الفصل الواضح بين عهدين عاشتهما الشعوب التركية ، عهد اسطوري قديم ، وعهد تاريخي .

#### ١ - التورانيون والایرانيون :

أما التورانيون فننسبهم الشاهناة إلى تور بن افریدون . وأقدم علاقة عرفناها بين التورانيين والإيرانيين ترجع إلى عهد هذا الملك ، فإنه قبل وفاته قسم مملكته بين أولاده الثلاثة فأعطى (سلم) وهو الابن الأكبر أرض الروم وبلاد المغرب وماتاخها من تلك الممالك ، وأعطى لتور بلاد الصين والترك . أما ایرج وهو أصغر الاخوة فقد خصمه بنجر ما في مملكته من البلاد إذ جعل له القسم الأوسط من المملكة الممتد من بلاد العراق حتى آخر بلاد

(١) المصدر السابق : ص ٢٩

(٢) المصدر السابق : ص ٣٠

الهند ، ثم خصه فوق ذلك بولاية العهد . وأثار هذا التحيز نائرة الأبخين تور ، سلم . وبدأت الغيرة تنهش قلبيهما وتوجه سلوكهما ضد أخيهما الصغير ابرج .

وكان ابرج ذكياً فطناً فأحس بما يضمرة نحوه أخواه من الكراهية وأراد أن يسترضيهما ويزيل ما بنفسيهما من الحقد عليه . ولكن المنافسة احتدمت ولم يسيطر تور على أعصابه فهجم على أخيه ابرج وقتله . وكان قتله سبباً في اشعال نار الحروب بين أعقاب هؤلاء الاخوة أجيالاً طويلة . وبدأت لهذا السبب سلسلة الحروب بين أعقاب ابرج أو ابر الذي ينتدب اليه الايرانيون طلباً للثأر وبين أعقاب أخيه تور الذي ينسب اليه التورانيون.

وأول هذه الحروب وقع في عهد منوجهر حفيد ابرج ، فعندما بلغ منوجهر هذا مبلغ الرجال عزم على الانتقام لجدته . وفي القتال الذي دار بين الايرانيين والتورانيين دارت الدائرة على هؤلاء الأخيرين وقتل تور . ولم يكف منوجهر بقتل تور في الشرق ولكنه اتجه بعد ذلك إلى الغرب حيث قتل أخاه سلم . وبدأ أن الأمر كله قد خلاص لمنوجهر الذي انفرد بالملكة بعد مقتل جديه تور وسلم .

لكن المدوء الذي ساد المملكة في عهد منوجهر بعد انتصاراته على جديه لم يلبث حتى تبيد بعد وفاته لأن التورانيين بلغهم ما كان عليه نوذر بن منوجهر من سوء الرأي وضعف التدبير . ووجدوا الفرصة سانحة للانتقام من الايرانيين والاستيلاء على بلادهم . وكان بطل التورانيين في ذلك الوقت افراسياب الذي غزا بجيشه الايرانيين وقضى عليهم وأسر ملكهم نوذر ثم لم يلبث حتى قتله ، وأقام مقامه في حكم بلاد الفرس (١) . ويعد هنا أول حكم تركي لبلاد الفرس .

وفي عهد زوبن طهمااسب كان التورانيون والاييرانيون قد مشوا

(١) شاهنامه : ٢٧٣/١ ط برزخيم تهران

ما يجرى بينهم من القتال وحل بالبلاد قحط شديد دفع التريقين إلى التفكير في السلم ، والكف عن الحرب . وتم الصلح بينهما فعلا . واتفق الطرفان بمقتضاه على أن يسيطر التورانيون على المنطقة الممتدة شرق نهر جيحون وأن يسيطر الايرانيون على المناطق الواقعة غربي ذلك النهر . وجعلوا النهر حداً فاصلاً بينهم .

ولكن التورانيون عندما بلغهم موت «زوه» نقضوا معاهدتهم مع الفرس وأسرع أفراسياب بجيوشه فعبر نهر جيحون قاصداً بلاد الفرس . وفي ذلك الوقت كان كرشاسب بن زو قد مات هو الآخر وتولى الأمر بعده الملك كيةباد رأس الدولة الكيانية . وبزع نجم البطل الايراني المشهور رستم بن دستان .

وفي القتال الذي دار بين الايرانيين بقيادة رستم والتورانيين بقيادة افراسياب حلت الهزيمة بالتورانيين وقتل منهم عدد كبير . وتراجع افراسياب إلى دامغان ثم عبر جيحون عائداً إلى بلاده . وبعد تقليب الأمر استقر رأى افراسياب وابيه بشنك على موادعة الايرانيين نظراً لما رأوه من قوتهم وحسن استعدادهم . وتم الصلح فعلا بين الجانبين على أن يلزم كل فريق حده ولا يتجاوزه بالاعتداء على الجانب الآخر . وكان الحد بينهما هو نفسه نهر جيحون ، فالتورانيين ما يقع شرقه من البلاد، وللإيرانيين ما يقع غربه .

ولكن التورانيين لم يحرصوا دائماً على الوفاء بتعهداتهم فعندما بلغ افراسياب وقوع الملك كيكاموس أسيراً لملك هاما ووران أسرع إلى بلاد ايران فاستولى عليها وقتل أهلها حتى اضطر كثيراً من الايرانيين إلى الهجرة من بلادهم فراراً بأرواحهم إلى زابلستان حيث كان يقيم رستم بن دستان ، واستغاثوا به لانقاذ ملكهم من أسر هاما ووران ولطرد التورانيين من ايران . واستطاع رستم أن يخلص كيكاموس من أسر ملك هاما ووران ثم استعد بعد ذلك لقتال التورانيين وطردهم من البلاد . وتولى كيكاموس قيادة

الجيش الايرانية وهزم التورانيين ، وأجلاهم عن بلاده ، واستتب الأمر لكيكاوس ودانت له البلاد بالطاعة .

وحدث بعد ذلك أن خرج البطل الايراني رسم مع بعض قواده للصيد فانحرف إلى بلاد توران وتوغل فيها هو ومن معه فسمع بذلك افراسياب وأعد العدة للهجوم عليهم حتى يخلص منهم . وكان أمه أن يقضى على رسم ومن معه من أبطال الايرانيين فيتزعزع بذلك ملك كيكاوس . ولكن افراسياب خاب أمه وكاد يهلك في القتال معهم ، ونجا بصعوبة بعد أن خسر كثيراً من رجاله وعتاده .

ووقعت بعد ذلك الحرب السادسة بين التورانيين بقيادة سهراب (وهو ابن رسم من ابنة ملك شمنجان التركي) ، والى ايرانيين بقيادة رسم وقد بدأت الحرب بهجوم سهراب على بلاد ايران واستيلائه على بعض قلاعهم . فأنقذ اليه الملك كيكاوس القائد رسم للقائه ومنعه من التوغل في ايران . ولم يكن رسم يعرف ابنة سهراب ولا كان سهراب يعرف أباه رسم . ودارت الحرب بينهما وكل منهما يجهل صلته بالآخر وبعد عدد من المبارزات بين القائدين قتل سهراب على يد أبيه الذي اكتشف الحقيقة بعد فوات الأوان (١) . وهذه المأساة من أشهر القصص الفارسية .

ولم يسكت افراسياب عن قصد بلاد ايران في عهد الملك كيكاوس الذي ندب للقائه ابنه سياوش وضم اليه قائد جيوشه رسم . وزحف سياوش بجيشه الكثيف حتى التقى بالتورانيين عند مدينة بلخ . وهناك دارت عليهم الدائرة فأسرعوا إلى نهر جيحون يعبرونه للعودة إلى أوطانهم . ولم يكن افراسياب قد اشترك في هذه المعركة وساء ما بلغه من انهزام التورانيين وفكر في المصالحة على أن يلتزم كل منهما الحدود التي رسمت بينهما منذ أيام أفريندون . وقبل سياوش مصالحة افراسياب الا أن أباه ككاوس

(١) شاهنامه : ٥٠٢/٢

رفض هذه المصالحة ودعا ابنه إلى تسليم من عنده من الرهائن التورانيين والعودة بهم إليه . ولكن سياوش رفض أن يتقضى عهده مع الأتراك ولجأ إلى بلادهم حيث عاش في كنفهم محوطاً بالرعاية والإكرام . وقد بالغ افراسياب في إكرامه فزوجه ابنته فرنكيس التي وضعت له مولوده كيخسرو بن سياوش المشهور بين ملوك الفرس . ولكن حياة سياوش لم تطل بين الأتراك بسبب الدسائس والمؤامرات التي انتهت بمقتله هناك .

ولما علم كيكاوس بمقتل ابنه سياوش صمم على الانتقام وأرسل رستم في اثني عشر ألف فارس للتأثر . وتقدم جيش رستم بفتح البلاد حتى إذا التقى بزعماء التورانيين صرعهم واحداً بعد الآخر كما صرع ولدى افراسياب وأخاه كرسيز . أما افراسياب فاستطاع أن ينجو من الهلاك وفر مع من بقى من التوران ، واستولى رستم على بلادهم ، ودمر مدنهم ، ونهب قراهم ، وأعمل السيف في رجالهم ، وسبي نساءهم حتى أتوه متضرعين يلتمسون منه الرحمة ويعلنون البراءة مما ارتكبه افراسياب فكف أذاه عنهم ثم ما لبث أن عاد إلى كيكاوس إذ رأى من الصواب أن يكون قريباً منه . وعندما أحس افراسياب بعودة الايرانيين إلى بلادهم ظهر من جديد ، وبدأ يجمع فلول جيشه .

وفي هذا الوقت كان كيخسرو قد صمم على الانتقام لأبيه سياوش من التورانيين ، ولكن جيش كيخسرو بقيادة طوس شغل عن القتال باللهو والسكر فاغتم التورانيون الفرصة بقيادة بيزان وهجموا على الايرانيين في معسكرهم وأوقعوا بهم وقعة عظيمة شنتت شملهم وأبادت جمعهم . فلما علم كيخسرو بذلك عزل طوس عن القيادة وبعث بجيش جديد يقوده عمه فرى برز . وحل بهذا الجيش ما حل بسابقه من الخزيمة والانحدار . وغنم التورانيون في تلك الحرب غنائم كثيرة من الأيرانيين . ولم ييأس الايرانيون من القتال فعاودوه مرة ثالثة بلا فائدة ولم يكن أمامهم بد بعد ذلك من الاستعانة برستم بعد أن فشل طوس أكثر من مرة أمام التورانيين ولم يطل بهم الانتظار حتى وصل رستم ومعه النجدة . وبعد مناوشات

ومبارزات عديدة التقى الجمعان . ولم يصمد الثوران طويلا ، وولوا الأذبار . وأقبل الإيرانيون على خيامهم يغنون ويجمعون ما خلفه الثورانيون وراءهم من أموال وكنوز . ولم يجد افراسياب بعد هزيمة جنده بدا من التقدم بنفسه ولكنه لما رأى قوة الإيرانيين أثر الانسحاب هو الآخر .

ثم تجددت الحرب بعد ذلك حين بلغ افراسياب أن الملك كيخسرو قد عزم على عبور جيحون فتقدم إليه في عسكر جرار وخيم في صحراء آمل ورتب جنده وتقدم كيخسرو حتى قرب من معسكر افراسياب وحفر حول معسكره خندقاً ملاءً بالماء . وفي المبارزات اتى سبقت الحرب قتل كيخسرو ، خاله شیده بن افراسياب (١) وبعد يومين من المبارزة نشب القتال العام بين الفريقين وانتهى بفوز الإيرانيين . واتخذ افراسياب من الليل ستاراً وعبر مع جنوده نهر جيحون عائدين إلى بلادهم . ولم يسكت كيخسرو عن طلبهم وظل يتعقبهم ويستولى على بلادهم حتى عم الخراب وأخذ افراسياب يهيم على وجهه في البلاد لا يأمن إلى أحد إلى أن وجد مغارة مهجورة في أحد الجبال فأقام بها . ولكن خفيده كيخسرو عرف مكانه فأسرع إليه ، وشد وثاقه ، وقتله بالسيف . وبذلك انقضى أمر افراسياب بطل الثورانيين .

ولما تولى كشتاسب بن لهراسب ملك ايرا أطاعه الملوك وأدوا له الجزية الا ملك توران ارجاسب فإنه وحده كان يأخذ الأتاوة من الإيرانيين وفي عهد كشتاسب ظهر زردشت وآمن به كشتاسب ودعا الناس ومن حوله من الملوك إلى الإيمان به . ونصح زردشت الملك كشتاسب ألا يدعن لأرجاسب وأن يقطع عنه الجزية التي يدفعها له . وعمل كشتاسب بنصح زردشت مما أثار الحرب من جديد بين الإيرانيين والثورانيين . واستمرت نيران الحرب بين الفريقين اسبوعين وانتهت بهزيمة ارجاسب . ومضى

(١) افراسياب جد كيخسرو لأنه أبو فرنكيس أمه . وهل هذا فالملك كيخسرو ايراني الأب توراني الأم . كما كان البطل ايراني سهراب بن رستم ايراني الأب توراني الأم . وأمه هي من ابنة ملك سمنجان الثوراني .

تحت جنح الظلام هارباً إلى بلاده في الصين . وترك من بقى من رجاله أسرى في قبضة الايرانيين . وبلغ أرجاسب بعد ذلك ما وقع من الخلاف بين كشتاسب وولده اسفنديار واضطراب أحوال البلاد فأسرع ينتهز الفرصة ويغير على ايران . ولم تطل هذه الحرب أكثر من ثلاثة أيام وانجحت بانهزام الايرانيين هزيمة ماحقة . وبعدها صفح كشتاسب عن ابنه وولاه قيادة جيشه بعد ذلك فاستطاع أن يهزم التورانيين ورغب في أن يقضى أثرهم وأن يتبعهم في بلادهم ، واستطاع في قصة طويلة أن يقضى على أرجاسب وأن يستولى على بلاده ، ويطلق لأتباعه العنان يسرفون في القتل ويثأرون من التوران .

وفي العهد الساساني تتجدد وقائع التورانيين مع الايرانيين في عهد بهرام كور . وكانت سيرة بهرام في النهو واقباله على العبث تد شاعت فطمع خاقان التوران في بلاده . وفي الوقت الذي بدأ فيه الخاقان التوراني يتوغل في ايران كانت جيوش الروم تستعد للزحف من الغرب . ونزل خاقان التوران بجيوشه في مرو . وغره ما كان من قوته وضعف حال الايرانيين حتى بغته سراً في تصيده أحد أتباع بهرام فأخذه على غره وقضى عليه . ولم يفتق التوران الا على أصوات الايرانيين يكبسونهم ويحيطون معسكرهم من كل جانب . واستطاع بهرام أن يقضى على التوران ويطهر مرو منهم ويقضى أثرهم في بلادهم حتى أتوه خاضعين والزموا بدفع الخراج له .

وفي عهد فيروز بن يزدجرد تجدد القتال من التوران وكان ملكهم «خوش نوازه . وكانت هذه الحرب شوماً على فيروز والاييرانيين لأن التوران خلدعوهم وأقاموا حول معسكرهم في سمرقند خندقاً غطوه بالأعشاب ولما وصل فيروز وتقدم ومن معه من كبار أهله وقواده للقاء هؤلاء التوران وقع في الخندق وقضى عليه (١) .

(١) شامنامه : ٢٢٧٤/٨

واستطاع ابنه بلاش أن يثأر له من بعده حتى أرغم التوران على طلب الصلح والعهود برد ما غنموه في حربهم مع فيروز وإعادة الأسرى الذين كان من بينهم قباد بن فيروز وموبد الموبدان أردشير. والحرص على سلامة هؤلاء الأسرى كان السبب الذي دفع الإيرانيين إلى قبول الصلح الذي طلبه الأتراك. ولزم كل فريق بموجب هذا الصلح حده وجعلوا من نهر جيحون فاصلاً بينهم كما كان منذ عهد أفريدون .

وجاء قباد بن فيروز وبدأ عهده بمحاربة الخزر وانتصر عليهم ثم شغل بمحاربة الهياطلة عشر سنين (٥٠٣ - ٥١٣) حتى استراح الإيرانيون من شرهم . ومع أن سوفزاي هو الذي خلص قباد من ايدي الهياطلة الا أن هذا الأخير لم يرع حقه عندما عاد إلى ملكه فقتله طغياناً منه واستبداداً وثار الشعب بعد مقتل سوفزاي ضد قباد ، وانقسم المؤرخون في أسباب هذه الثورة فظن بعضهم أنها كانت من أجل سوفزاي واحتجاجاً على مقتله . والحقيقة أن هذه الثورة كانت بسبب ايمان قباد بمزدك واعتاقه الديانة المزدكية ومحاولته فرض هذه الديانة على الناس مما أفسد المجتمع الإيراني إفساداً شديداً . وقد نجح الثوار في القبض على قباد وبمنه الا أنه استطاع أن يهرب من السجن ويلجأ إلى الهياطلة ويستعدي ملكهم على الإيرانيين فأمنه بثلاثين ألف مقاتل عاونوه على الرجوع إلى بلاده والتكامل بأعدائه وتثبيت عرشه .

وعندما تولى كسرى أنوشروان الملك أمر ببناء سد عظيم بين توران وإيران يمنع تدفق هؤلاء التورانيين على بلاده . وهذا السد يمتد في ولايتي اذربيجان وأرمينية قرب أردبيل . ويعرف بسد أرمينية أو الباب الحديد أو الباب أو باب الأبواب (١) . كما يعرف أيضاً بسور الصين وسور الحجارة (٢) .

(١) م . الرمزي : تنليق الأخبار ص ١٦٩ ط أورنبوع

(٢) المسعودي : مروج الذهب ٢٠٥/١ ط نالفة محي الدين عبد الحميد

وأراد الخاقان التوران أن يهادن كسرى أنوشروان لما سمع من حسن سيرته وقوة بأسه فأرسل إليه وقدماً هدية عظيمة . وخشى الهياطلة الذين يمر وفد الخاقان ببلادهم أن يتصادق الطرفان فيسهل القضاء عليهم ، وفكر وا في طريقة لإفساد ما بينهما فهجموا على الوفد وقتلوه وسلبوا الهدية . ولما علم الخاقان بقتلهم وجه إليهم جيشه . ووقعت بين التوران والهياطلة واقعة عظيمة قرب قرية نخشب استمرت ثمانية أيام وانتهت بانتصار التورانيين وقتل ملك الهياطلة وتحطيم جيشه . ورأت القبول المهزومة أن تنضم إلى جيش كسرى أنوشروان لتحمي نفسها . وفكر الخاقان في الهجوم على إيران بعد ذلك ولكنه عدل عن فكره ورأى من الأصوب أن يتصل بكسرى بصلة النسب ويوثق ما بينهما بوثاق متين فزوجه إحدى بناته وأجهن إلى قلبه . وهدأت الأحوال بين التورانيين والایرانیین وانتشر السلام وعمرت البلاد وعم الخير .

وفي عهد هرمزد بن كسرى أنوشروان أحاط به الاعداء من كل جانب ، فأقبل ساوه شاه ملك التورانيين قاصداً إيران ، واستعد في الغرب قيصر الروم ، وتحفز للانقضاض أيضاً ملك الخزر . وضيق الاعداء عليه الخناق من كل جانب . واستطاع هرمز أن يفض هذا الجمع فصالح ملك الروم ، وهاجم ملك الخزر الذي ما كاد يسمع بقدمه حتى فر أمامه . ولم يبق أمامه بعد ذلك سوى ملك التوران فجهز لملاقاته جيشاً بقيادة بهرام جوبين . وانهمز التورانيون أمامه ، وقتل ساوه ، وتبدد شمل جيشه . وابتهج الايرانيون بهذا الظفر العظيم وأعفى هرمزد الناس من خراج الأرض أربع سنين ابتهاجاً بهذه المناسبة (١) . وحاول يرموده أن يثار لأبيه ولكنه ولكنه متى هو الآخر بالهزيمة واضطر إلى الاستسلام آخر الأمر .

ولم يلبث بهرام طويلاً حتى انقلب على ملك إيران وتقدم لحرب كسرى برويز الذي سار لملاقاته بالنهروان . وروى المسعودي في ذكر هذه الواقعة

(١) شاهنامه : ٢٦٢٣/٨

أن بهرام جزيين حين بلغسه قتل هرمزد أسرع إلى المدائن من النهروان فاستولى على الملك . ورأى برويز أن يستعين بملك الروم فكاتبه في هذا الشأن ووعده أن يعوضه عما ينفق من أموال وأن يدفع إليه ديات من يقتل من مجند الروم . وبعث إليه بهدايا عظيمة . واشترط ملك الروم مقابل هذه المساعدة أن ينزل له برويز عن الشام ومصر اللتين كانتا خاضعتين لسلطانه فأجابه برويز إلى ما طلب . ولما اجتمعت الجيوش لأبرويز هاجم بهرام فهزمه (١) ولم يجد بهرام بدا من اللجوء إلى خاقان النورانيين الذي آواه وأكرم مثواه واستطاع الأيرانيون بعد ذلك أن ينفذوا إلى تخيم بهرام بن التوران من يطعنه بسكين فيقتضى عليه (٢) .

هذه هي خلاصة ما ورد في الشاهنامه من الحروب التي دارت بين التورانيين والأيرانيين في العهود البيشدادية والكيانية والساسانية . ويلاحظ أن ماورد من هذه الوقائع في العهدين البيشدادى والكيانى أسطورى لأن هاتين الدولتين من الدول الأسطورية عند الفرس . أما ماورد منها في تاريخ الساسانيين فإنه يتضمن كثيراً من الوقائع التاريخية وإن لم يسلم الأمر من المبالغات والأقاصيص .

ويلاحظ أن العلاقات بين التورانيين والأيرانيين في الفترة السابقة كانت تقوم على العداوة والحرب ورغبة كل فريق في القضاء على الفريق الآخر وتملك أراضيهِ .

ولا شك في أن الحروب كانت مظهراً مهماً من مظاهر الاتصال والاحتكاك بين الفريقين ، كما كانت التجارة مظهراً آخر من مظاهر هذا الاتصال . فقد كان التورانيون أهل بدوارة ولم تكن الحضارة قد عرفت طريقها إلى مجتمعاتهم بعد . وكان المجتمع الأيراني وخاصة في العهد الساساني متحضراً . ومن هنا كان التوران البداءة في حاجة إلى ما يصنع في إيران من السلع . يضاف إلى هذا التجاور المكاني بين الطرفين .

(١) المروج : ٢٧٥/١

(٢) شاهنامه : ٢٨٢٤/٩

وقد كان لهذا الاتصال بين الشعبين آثاره ومظاهره ونتائجها . وقد عرف النوران الكتابة من الإيرانيين . كما أن الديانات المختلفة التي ظهرت في بلاد الفرس تسربت أيضاً إلى المجتمع النوراني . وقد عرف النورانيون الديانة الزردشتية كما انتشرت بينهم الديانة المانوية . ويذكر بارتولد أنه لم تكن دولة الأتراك الغز تسقط حتى أخذت المانوية تنتشر بين الترك على نطاق واسع (١) . ومعنى هذا أنها كانت معروفة قبل ذلك أيضاً . ولا معنى لأن يسلم بارتولد بانتشار الديانة المانوية بين الأتراك ثم ينكر انتشار الديانة الزردشتية في المجتمع النوراني (٢) . وإذا كان بارتولد ينكر في صفحة ١٢ انتشار الزردشتية في المجتمع النوراني فإنه بذلك يناقض نفسه بعد ذلك في صفحة ٤٠ حيث يعترف صراحة أنها انتشرت هناك بحكم وقوع النورانيين تحت تأثير المدينة الإيرانية وهذا هو الشيء الطبيعي الذي نسيه بارتولد في أول الأمر . ويستشهد بارتولد على انتشار الزردشتية في صفحة ٤٠ (التي سبق له أن انكر انتشارها في ص ١٢) بالرحالة الصيني هيوان تسانج الذي جاب أواسط آسيا سنة ٥٣٠ . ويستند بارتولد على كتابات هذا الرحالة في القول بأن الديانة الزردشتية غزت المجتمع التركي وانصهرت على الديانة البوذية في أواسط آسيا منذ أواخر الدولة الساسانية (٣) .

وتبدأ الوقائع الصحيحة لتاريخ الترك من عهد كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) ففي القرن السادس أقام النوران دولة بنوية عاشت إلى القرن الثامن . وامتدت هذه الدولة امتداداً واسعاً من حدود الصين الشمالية إلى البحر الأسود . وكان هؤلاء النورانيون ينسبون إلى الغز . وقد قامت هذه الدولة على أكثاف أخوين هما بومين الذي حكم الجانب الشرق من الدولة وتوفي ٥٥٢ م ، واخوة استمي الذي كان أطول عمراً واستمر يحكم الجانب الغربي من الدولة بعد وفاة أخيه بنحو ربع قرن . وفي سنة ٦٣٠ م

(١) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٣

(٢) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٢

(٣) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٤٠

قضت الأسرة المالكة في الصين ، أسرة تانغ ، على الجزء الشرقى من الدولة وأتبعته بالقضاء على الجزء الغربى سنة ٩٥٩ . ولكن التورانيين لم يستسلموا للخضوع وحققوا استقلالهم من جديد ، وظلت دولتهم قائمة حتى سنة ٧٤٥ (١)

وحوالى سنة ٧٠٠ م كانت الفتوحات العربية قد استطاعت أن تسيطر على الأجزاء الغربية من هذه الدولة بينما سقطت الأجزاء الشرقية في سنة ٧٤٥ في يد قبيلة تركية أخرى هي الأويغور .

## ٢ - الفتوح الإسلامية :

لم تكن صلة المسلمين بما وراء النهر مستقرة واضحة أول الأمر فكان الحكام العرب يشنون الغارات على ما وراء النهر ويعودون كل سنة إلى أماكنهم في خراسان (٢) . ويروى الطبرى أن الأمراء المحليين في ذلك الوقت كانوا يجتمعون في كل سنة ليفضوا ما بينهم من المنازعات بالحسنى وليتعاهدوا على مواصلة الجهاد ضد العرب .

ومما كان يشجع العرب على غزو الأقاليم الشرقية بالإضافة إلى نشر العقيدة و إعلاء كلمة الدين ازدياد الأموال التى يغمونها . وكان لمساعدة الأهالى أنفسهم أثر كبير فى الانتصارات التى أحرزها العرب فيما وراء النهر . ويعزى جانب من نجاح قتيبة فى فتح تلك الأصقاع إلى مساعدة العناصر الوطنية . أما بطء الغزو فراجع إلى أن العرب قنعوا إلى حد ما لفترة طويلة بالغنائم الحربية والجزية ولم يهتموا بأن يكون الفتح مستمرا متصلا . هذا إلى وجود العقبات الطبيعية التى لم يكن لها مثيل فى بلادهم .

ومع أن المسلمين غزوا ما وراء النهر فى سنة ٤٦ هـ على يد القائد ربيع ابن الحارث الا أن معرفتهم بهذا الاقليم ورغبتهم فى فتحه كانت أقدم من ذلك فابن الأثير فى حوادث سنة ٢٢ يذكر أن الأحنف بن قيس غزا خراسان ،

(١) بروكلمان : الامبراطورية الإسلامية والمغلاط - الترجمة العربية ص ١١٠ بيروت

(١) كانت ما وراء النهر تتبع حاكم خراسان .

وأن عمر أذن للمسلمين فدخلوا بلاد فارس تعقباً ليزدجرد ، وأنهم هزموه عند بلخ ففر منهم وعبر النهر ، ورغب المسلمون في مطاردته ولكن عمر كتب إلى الأحنف وطلب إليه أن يقتصر على مادون النهر ولا يجوزه . ولا شك في أن عمر أراد أن يعفى المسلمين من التوغل في تلك الأقاليم خوفاً عليهم لجهلهم بها .

وبمرور الأيام سمع العرب أشياء كثيرة عن تلك الأقاليم الغنية فكانوا يقومون بغزوات متقطعة غير منظمة يعودون منها بالغنائم الكثيرة فعرف العرب تلك الأقاليم بالتدرج وشجعهم غناها وضعفها على أن يقوهوا بغزواتهم التي أخذت شكلها المنظم فيما بعد .

وفي سنة ٤٦ أرسل زياد بن أبي سفيان ربيع بن الحارث إلى خراسان فسار حتى بلخ . ومن هناك عبر النهر . ولم تكن لهذه الغزوة أهمية كبيرة لأن ربيعاً لم يكن له هدف مرسوم من هذا الغزو .

وفي سنة ٥٤ عين معاوية عبيد الله بن زياد والياً على خراسان . وكان عبيد الله شاباً فتياً فقطع النهر إلى بخارى واستولى في طريقه على بيكند المدينة الغنية بعد حرب طويلة ، ونال من فتحها غنائم عظيمة وحمل عدداً كبيراً من الأسرى ثم تابع سيره إلى بخارى . وكانت تحكها الخاتون التي استنجدت بمن حولها من الأتراك فحضرها إلى نجدتها في جيوش كبيرة ، ولكن المسلمين تغلبوا عليهم في النهاية وقتلوا منهم كثيرين ففرقت جيوش الأتراك مسرعة إلى أوطانها وقرت الخاتون إلى قلعتها وأراد عبيد الله أن ينتقم منها بتخريب مدينتها فأرسلت إليه تطلب الصلح فصالحها على مال كثير وحمل معه أربعة آلاف أسير .

ثم عزل عبيد الله سنة ٥٦ وحل محله سعيد بن عثمان الذي عبر النهر قاصداً بخارى . فلما علمت الخاتون بذلك أرسلت إليه تذكركه بالصلح

الذي عقده مع سلفه وضاعفت له في المال والهدايا . ولكن سعيها بدأ  
 المعاهدة، ورد إليها هداياها، وتقاتلت جيوشه مع جيشها وجيوش من خفوا  
 لتجديتها من الصغد وكش ونخشب . وانتهى الأمر بهزيمتهم جميعاً فانفضوا  
 من حولها ولم تجد بداً من طلب الصلح فصالحها سعيد الا أنه طلب منها  
 رهائن عنده حتى يضمن سلوكها نحوه وعدم انقضاها عليه أثناء غزوه  
 للصغد وسمرقند ، فقدمت اليه ثمانين شخصاً من دهاقنة بخارى وأمرائها  
 ويذكر نرشخي أن هؤلاء الرهائن كانوا من بين المتأمرين عليها وعلى ولدها  
 طغشاده فتخلصت منهم بهذه الطريقة (١) .

ومن ألع الشخصيات الإسلامية التي نشرت الإسلام في المشرق شخصية  
 القائد العربي قتيبة بن مسلم . وتعتبر غزوات قتيبة مرحلة بارزة من مراحل  
 الغزو الإسلامي في آسيا الوسطى . واستطاع قتيبة في سنوات متعاقبة أن  
 يستولى على بخارى ونسف وسمرقند . وفي سنة ٩٤ هـ غزا قتيبة الشاش  
 وفرغانه ووصل إلى الصين وفتح مدينة كاشغر في سنة ٩٦ هـ . واستطاع  
 قتيبة أن يحقق نصراً إسلامياً في تلك المناطق بنشر الدين الإسلامي هناك  
 الذي قضى على الديانة الزردشتية . ويلاحظ أن الفتح لم يكن كافياً لتثبيت  
 الإسلام في قلوب البخاريين . ويروى النرشخي أن البخاريين كانوا  
 يعتقدون الإسلام إذا ما غزاهم العرب ثم يرتدون عنه إذا رحل العرب .  
 وكان من عادة العرب الفاتحين أن يرحلوا عن تلك الأصقاع الباردة  
 إذا حل الشتاء ويعودوا إلى خراسان . وفي كل غزوة من غزوات قتيبة  
 كانوا يعلنون الإسلام ثم يعودون إلى دينهم القديم حين يرجع العرب عنهم .  
 وقد بذل العرب مجهودات كبيرة ليثبتوا دعائم هذا الدين الجديد .

وكان أشد الناس ضيقاً بهذا الدين وعناداً له رجال الأديان التي كانت  
 منتشرة في تلك الاصقاع قبل الإسلام ، والأشراف . وقد لاحظ العرب ذلك  
 كما لاحظوا أن كثيراً ممن اعتنقوا الإسلام في الظاهر خوفاً ورهبة كانوا  
 يزاولون عبادتهم القديمة سرّاً أو في سكون الليل . فأمر قتيبة كل بخارى

(١) نرشخي : تاريخ بخارا ص ٤٦ ط سعادت ١٣١٧ تهران

أن يفسح في بيته مكاناً لعربي يسكنه فيه . وكان هؤلاء العرب عيوناً للدولة يبلغون عن كل من يرتد عن الاسلام أو يمارس شعائر دينه القديم .

وبما بذله قتيبة لنشر الدين الجديد وتشجيع الناس على اعتناقه أنه بنى في سنة ٩٤ هـ المسجد الجامع في قلعة بخارى . وجعل لكل من صلى فيه الجمعة درهمين مكافأة . وذكر الترشيحي أنه رأى مسجد بخارى في أيامه وعلى أبوابه نقوش وصور وثنية ، وأنه سأل عن سبب ذلك فعرف أن أغنياء بخارى كانوا قد أقاموا لأنفسهم خارجها سبعمائة قصر . وفي أحد أيام أجمع دعا المسلمون أولئك البخاريين إلى الصلاة في المسجد فرموهم بالحجارة فهجم المسلمون على تلك القصور وانتزعوا أبوابها وجعلوا منها أبواباً للمسجد حين وسعوه . وكان على تلك الأبواب صور أصنامهم ومعبوداتهم فزالوا من تلك الصور ما استطاعوا وتركوا الباقى (١) .

ولم يكن المسلمون في بخارى يستطيعون في أول الأمر الظهور في الشوارع أو الأماكن العامة بغير سلاح خوفاً على أنفسهم من الكفرار وبقية هذه هذه العادة حتى عهد الترشيحي (٢) . وإمعاناً في الحيلة لم تسمح السلطات للعناصر الوطنية بحمل السلاح إلا بعد أن تعلن إسلامها .

ويذكر بارتولد أن تأثير المدينة الايرانية في بلاد الترك قد ازداد بعد غزو المسلمين وانتشار الاسلام هناك (٣) . وإذا كانت الديانة الزردشتية الايرانية قد أضعفت أثر الديانة البوذية هناك فإن الإسلام قد أثر في الزردشتية وأضعف شأنها . وانتشر بين أهالي المناطق الشرقية قصص الفرس القديمة وأخبار ملوكهم الأقدمين ، وبدأت اللغة الفارسية تسود في تلك المناطق . ويقرر بارتولد أن اللغة التركية إذا اجتمعت مع الفارسية في قطر من الأقطار

(١) ترشيحي : تاريخ بخارا ص ٥٧

(٢) نفس المصدر ص ٦١

(٣) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٢٩

فإنها تنتصر عليها (١) . وهذا الرأي ليس صحيحاً ولا يمكن التسليم به فتاريخ الترك سواء منهم الذين عاشوا في المناطق الشرقية أو الغربية يدل على أن لغتهم وأدبهم ظلت تحمل حتى وقت متأخر طابع اللغة الفارسية وأدبها وأن الأدب التركي نشأ في ظل الأدب الفارسي ومنه استمد نماءه وقوته . وعندما ادم الأتراك بعد قرون طويلة بلغتهم وجعلوها لغة للتأليف العلمية والأدبية لم يضعف شأن الفارسية وظلت تزاحم التركية . وهذا موضوع طويل لا يحتمله هذا البحث .

### ٣ - اقراخانيون والسامانيون :

انتشر الإسلام بين الأتراك في عهد الدولة السامانية الإيرانية التي سيطرت في القرنين التاسع والعاشر (من ٨٢٠ - ١٠٠٠ تقريباً م) على أواسط آسيا وبلاد ما وراء النهر (٢) .

وينسب هؤلاء السامانيون إلى قرية من قرى بلخ يقال لها سامان (٣) . وكان جد الأسرة والياً على القرية يقال له سامان خدا . وينتهي نسب السامانيين إلى بهرام جربين . وقد مر ذكره فيما سبق (٤) . وقد أسلم سامان هذا فيما بعد

وفي ختام القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) حين ظهرت الدولة الصفارية التي قضت على حكم الطاهريين وأصبح لها السيادة في فارس طمع امرؤها في أن يوسعوا حدود دولتهم وأن يسيطروا سلطانهم على بلاد ما وراء النهر مما عجل بدولتهم وقضى عليها ، وذلك أن عمرو بن الليث بعد أن صارت له السيادة في فارس أراد أن يضم إليه كل ما كان للطاهريين فيما وراء النهر . وكان هذا سبب القضاء على دولته إذ كانت قوة السامانيين

(١) نفس المصدر ص ٤٢

(٢) بينما فيما سبق أن الإسلام عرف طريقه إلى بلاد الأتراك قبل ذلك بفترة طويلة في الفتوح

الإسلامية الأولى منذ عهد قتيبة بن مسلم سنة ٨٦ هـ

(٣) معجم البلدان : ١٢/٣ ط ليجز

(٤) راجع ص ١٢ من هذا البحث .

في ذلك الوقت قد توطدت . وتفسير ذلك أن عمراً كان قد ثبت ملكه في فارس فلم يستطع الخليفة أن يرد له طلباً . وكان طلبه أن يضم إلى ملكه ما وراء النهر فأصدر الخليفة أمراً بعزل اسماعيل الساماني وتولية عمرو بن الليث نائباً للخليفة فيما وراء النهر . ولم يدعن اسماعيل لهذا القرار وقامت الحرب بينه وبين عمرو وانتهت بهزيمة جيش عمرو الذي كان يقوده محمد ابن بشير . ولما بلغ الخبر عمراً استعد بنفسه لحرب اسماعيل وسار من ينسابور إلى بلخ . وهناك تقابل الجيشان وحلت الهزيمة بعمرو فحاول الفرار ولكنه أسر وأرسل إلى الخليفة المعتضد في بغداد سنة ٢٨٨ هـ حيث قتل في السنة التالية . وباختفاء عمرو من الميدان خلا الجو لاسماعيل الساماني وكان على الخليفة أن يقر توليته على ما كان يتولاه عمرو . وتم بذلك لاسماعيل الاستيلاء على خراسان . وأصبحت دولة السامانيين تضم عدداً من المدن المشهورة في ذلك التاريخ أمثال مرو ، نيشابور ، الري ، آمل ، هراة ، بلخ ، قزوين ، شيراز ، أصفهان . وكان السامانيون والبويهيون يتقاسمون في وقت واحد حكم إيران وأواسط آسيا على النحو الآتي : كان للسامانيين خراسان ، سيستان ، بلخ ، بخارى ، سمرقند ، وكان للبويهيين العراق ، فارس ، كرمان ، خوزستان ، لورستان . أما طبرستان وجرجان فكانت تنتقل بينهما . وهكذا ترك اسماعيل الساماني رقعة دولته عندما مات سنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م .

وعندما تولى الحكم الأمير منصور الأول قابله متاعب من قبل حاكم نيشابور التركي البتكين . وعندما وجه الأمير جيوشه إليه تراجع إلى غزنة حيث استعد هناك ونظم جيشه بحيث استطاع أن يقاوم جيش المنصور . وعندما مات البتكين سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦ م انتقلت رئاسة هؤلاء الأتراك إلى سبكتكين . وقد استطاع سبكتكين هذا أن يضع أساس دولة جديدة سيطرت فيما بعد على إيران وشمال الهند . ومع أن سبكتكين التركي كان تابعاً للدولة السامانية الإيرانية إلا أنه كان يتصرف كما يتصرف الحكام المستقلون . وهذه الدولة التركية التي وضع أسسها سبكتكين والتي عرفت

فما بعد باسم الدولة الغزنوية استطاعت أن تقضي على الدولة السامانية من ناحية ، واشتركت معها من ناحية ثانية قوى تركية أخرى هي قوة القراخانيين

وكان هؤلاء القراخانيون قد وجهوا ضربة قوية إلى الدولة السامانية حين استولى بغراخان على مدينة بخارى سنة ٣٨٣ هـ . ولم يستطع نوح الساماني أن يقاوم رغم الجيش الكبير الذي أرسله للاقافة بغراخان . ولما يئس نوح من النصر خرج من بخارى إلى آمل متخفياً . ويشاء الحظ الحسن أن يخالف نوحاً لأن بغراخان لم يقو على المقام في بخارى لوخامة جوحا فرجع عنها إلى بلاد الترك ومات بعد ذلك ، وثار الأهالي على عسكره في بخارى وفتكوا بهم . وكانت هذه هي الفرصة السانحة لنوح فعاد إلى عاصمته وأحسن الأدلون استقباله . وفي أثناء حروب نوح الساماني مع القراخانيين كان بعض كبار دولته قد ثاروا عليه طمعاً في مملكته مثل أبي علي بن سيمجور ، وفائق . وكان أولهما يكاتب بغراخان سراً ويحضه على غزو بخارى . وانضم فائق بدوره إلى بغراخان في غزو بخارى . فلما رجع بغراخان عن المدينة إلى بلاده وقضى على الجيش التركي كان على نوح الساماني أن يتخلص بعد ذلك من أتباعه الخونة . وكان أبو علي بن سيمجور وفائق قد تحالفا ضده فاستدعى نوح لجرهما سبكتكين وولده محموداً . وتقابلت الجيوش في هراة وانهمز أبو علي هزيمة شنيعة فعاد معه فائق إلى نيشابور فتبعتهما جيوش نوح بقيادة سبكتكين واستولت على المدينة . وولى نوح محموداً على نيشابور وعهد إليه بجيوش خراسان ولقبه سيف الدولة كما لقب أباه سبكتكين ناصر الدولة . وعاد نوح بعد ذلك إلى عاصمته بخارى .

ولكن موت نوح في سنة ٣٨٧ أدى إلى اختلال ملك السامانيين اختلالاً ظاهراً . وعندما علم القراخانيون بوفاة وولاية ابنه منصور الثاني بن نوح الثاني هاجموا بخارى بالاشتراك مع فائق ، وفر المنصور أمامهم . وحاول فائق بعد أن دخل بخارى أن يثبت أقدامه بطريقة قانونية فأعلن للناس أنه جاء لمساعدة الأمير على توطيد ملكه ، واستطاع أن يقنع منصوراً بالعودة

إلى عاصمته . وكان طبيعياً بعد أن عاد منصور أن تصبح السلطة والنفوذ في يده فائق .

وعين فائق قائداً جديداً للجيوش بخراسان هو بكتوزون الذي كان من كبار شخصيات الدولة السامانية قبل سقوط بخارى في يده فائق . وكان محمود بن سبكتكين حينما تولى بكتوزون قيادة الجيوش بخراسان يحارب أخاه اسماعيل ، ولما انتصر عليه واستولى على مدينة غزنه ساءه أن يعين بكتوزون والياً على خراسان . ورأى نفسه أحق بهذا المنصب لما قدمه إلى الدولة من خدمات فكتب إلى الأمير الذي لم يكن يملك من السلطة الفعلية شيئاً ، وعرض عليه الأمير لارضائه بلخ ، ترمذ ، بست ، هراة بدل خراسان ولم يتقبل محمود هذا العرض واتخذ الحرب وسيلة لنيل ما يريد .

وفي تلك الأثناء توجه بكتوزون وفائق خيفة من منصور فقبضا عليه ، ووليا مكانه أخاه عبد الله . وكان هذا حافزاً حفز محموداً للاسراع في حربهما والاستيلاء على الملك ودارت الحرب بين الفريقين في آخر جمادى الأولى بمرو فانهزم بكتوزون وفائق وأخذ محمود يطاردهما حتى استخلص خراسان منهما ونزعها نهائياً من الدولة السامانية ، وكون لنفسه فيها ملكاً رأى أن يكسبه المظهر القانوني فخطب للقادر بالله . واستولى محمود على أملاك السامانيين في المقاطعات الواقعة جنوب نهر جيحون ، وهرب بكتوزون وفائق ومعهما الأمير الساماني الجديد عبد الله إلى بخارى .

وفي عهد عبد الملك الثاني بن نوح الثاني (1) . الذي تولى الملك صبيهاً صغيراً كانت نهاية الدولة السامانية وزوالها على يدي محمود بن سبكتكين التركي ، والقرانيين (الابلك خانين)

وبعد أن استولى محمود على خراسان لم يبق في يده عبد الملك الأمير الساماني المذكور سوى إقليم ما وراء النهر . وكان قد اجتمع في بخارى ،

(1) يذكره صاحب تاريخ كزیده خطأ «عبد الملك»

عبد الملك وبكتوزون وفائق وحاول ثلاثهم أن يقوموا بعمل حربي يستردون به خراسان . وأخذوا فعلا في إعداد الجيوش ولكن أمرهم انتهى إلى الفشل فقد مات فائق وكان أبرزهم فوهن عزمهم وتفرقت الجيوش التي أعددوها ولم يعد هناك أي أمل في استرداد خراسان .

ولم يلبث إقليم ما وراء النهر أن لحق بخراسان فإن ملك الترك عندما بلغه ما صار إليه أمر الدولة السامانية من الضعف والعجز وانتزاع إقليم خراسان منها سير إلى بخارى جيشاً استطاع أن يدخلها وأن يقبض على بكتوزون وغيره من القواد والأمراء . وكان ذلك في يوم الثلاثاء العاشر من ذي القعدة سنة ٣٨٩ هـ . واختفى عبد الملك مدة استطاع بعدها ألا يلك خان أن يقبض عليه ويسجنه إلى أن مات .

وهكذا انتهت هذه الدولة السامانية الإيرانية على يد هاتين القوتين التركيتين : قوة الغزنين والقراخانيين . هذه الدولة التي يقول عنها ابن الأثير أنها انتشرت وطبقت كثيراً من الأرض من حدود حلوان إلى بلاد الترك بما وراء النهر .

• • •

وتعتبر مملكة القراخانيين أولى الممالك الإسلامية التركية . وقد بدأ شأن هؤلاء القراخانيين يعلو منذ أواخر القرن العاشر عندما دخلوا في الإسلام وكانت عاصمتهم في أول الأمر مدينة كشغر . وامتدت مملكتهم من كشغر حتى بحر آرال . ويرجع أصل هؤلاء القراخانيين إلى قبائل الأويغور . ومن أعظم خاناتهم بغراخان الذي سبقت الإشارة إليه ، والذي اتخذ من مدينة بلاساغون عاصمة له . وضمت مملكته كثيراً من المدن المهمة أمثال كشغر ، ختن ، تراز ، فاراب ( اترار ) وغيرها من المدن المهمة .

ولم يكتف القراخانيون بالقضاء على دولة السامانيين ولكنهم فكروا في القضاء على الدولة الغزنوية نفسها . وقامت الحروب بين الطرفين .

وكان من أثر زوال الدولة السامانية الإيرانية وقيام الدولة الغزنوية التركية على حكم إيران، وطمع القراخانيين الأتراك في القضاء على الدولة الغزنوية نفسها لاختضاع بلاد إيران لحكمتهم أن أصبحت إيران مسرحاً لحروب لا مصلحة للشعب الإيراني فيها ، وأصبحت بلاده مطعماً للمغامرين الغزاة من الأتراك . وقد أثار هذا الوضع نائفة العناصر الوطنية الإيرانية التي نهت الشعب الإيراني المستكين إلى أمجاده التاريخية ، وضرورة أحيائها لنشر الوعي القومي بين الشعب . وفي هذا الجوف ظهرت شاهنامه الفردوسى

وكما تأثر القراخانيون بالاسلام تأثروا أيضاً بالثقافة الإيرانية التي راجت بينهم واستهوتهم الملاحم الإيرانية حتى إنهم أطلقوا على أنفسهم لقب آل افراسياب (١) .

#### ٤ - الغزنيون :

أشرنا فيما سبق إلى هولاء الغزنيين وكيف قضوا على الدولة السامانية. وأصل هذه الأسرة اليتكين أحد عبيد الأتراك الذين ارتفع شأنهم في عهد الدولة السامانية .

ويعتبر سبكتكين مؤسس هذه الدولة . وكان هو الآخر عبداً من عبيد اليتكين وزوجاً لابنته ، وكان معروفاً بالشجاعة والحزم فاستطاع أن يمد سلطان دولته . وولى وجهه شطر الهند فهزم ملوكها وأنشأ حكومة بيشاور . وكذلك اتجه إلى الناحية الأخرى واستولى على خراسان .

وجاء بعد سبكتكين ابنه محمود الذى يعتبر أشهر ملوك هذه الدولة ومن أبرز أعلام التاريخ الإسلامى . وقد نال محمود هذه المكانة لما قام به من الغزوات الكثيرة التي رفعت لواء الاسلام . وتعتبر غزواته في بلاد الهند من أعظم الغزوات التي قام بها المسلمون في كفاحهم الطويل لنشر الاسلام .

(١) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٨٥

وقبل أن يبدأ هذه الغزوات التاريخية رأى أن يأمن جانب مجيراته ليضرب لمحاربة الهنود وهو مطمئن . وكان مجيراته في ذلك الوقت السامانيين والايك خانية (القراخانية) .

أما السامانيون فقد ضعف أمرهم في ذلك الوقت ضعفاً شديداً ولم يعد بأيديهم سوى إقليم ما وراء النهر بعد أن انتزعت خراسان منهم . وحتى هذا الإقليم ، ما وراء النهر ، لم يدم لهم طويلاً لأن ايلك خان استطاع بمجيئه أن يزحف إلى بخارى سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م ، وأن يأسر عبد الملك الساماني ويحبسه بأفكند حتى مات . ومع أن الدولة السامانية لم يعد لها شأن أو كيان فقد حرص محمود على أن ينفي الناحية الشكلية حقها وطلب موافقة الخليفة على ولايته فجاءته خلعة السلطنة من القادر بالله الخليفة العباسي . وكان محمود يحرص وهو صاحب القوة والغلبة على اظهار الخضوع الشكلى للخليفة العباسى حتى إنه كان ياتب نفسه في كتبه إلى الخليفة «عبد مولانا أمير المؤمنين وصنيعته محمود بن سبكتكين» (٢) ومنحه الخليفة لقب «يمين الدولة وأمين الملة» .

أما ايلك خان التركي فقد رأى محمود أن مسالته أحسن وسيلة للاطمئنان إلى جانبه ، فأخذ في توطيد أواصر الصداقة بينهما . ورأى أن يؤكد ودعماً فأرسل إليه وفداً يرجو مصاهرته ويغلب كرمته . وكان لمحمود ما أراد ، وقبل ايلك خان أن يزوجه ابنته . وبهذا نجح محمود فيما أرادته وهياً نفسه بعد ذلك لغزو الهند .

وفي نهاية عهد محمود كانت دولته قد امتدت امتداداً عظيماً وشملت خراسان وطبرستان في الغرب والتركستان وما وراء النهر في الشمال وإقليم البنجاب في الشرق والأقليم المعروف في الوقت الحاضر ببلاد الأفغان في الوسط .

وبعد أن رجع محمود من إحدى غزواته ضد البويهيين التي استولى

(١) النجوم الزاهرة : ٢٥٩/٤ ط دار الكتب ١٩٢٢

فيها على أصفهان مات في غزوة سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م بالغاً من العمر  
إحدى وستين سنة إذ كان قد ولد في سنة ٣٦٠ / ٩٧٠ م .

ولم يجد الزمان على الدولة الغزنوية بمثل محمود . ويذكر البيهقي أن  
محموداً كان يحس أنه لن يظهر في أمرته بعد موته من يضارعه (١) ،  
وكانه كان يتنبأ بذلك .

ولم يفتن محمود في حياته إلى الخطر الذي يهدد دولته من وجود  
الأتراك السلاجقة وازدياد نفوذ رؤسائهم أمثال طغرل بك . ومع أن مسعوداً  
خليفة محمود كان من الملوك الأكفأ والمقاتلين الشجعان إلا أنه انهزم  
أمام طغرل في الموقعة التي دارت بينهما في دندانقان بين مرو وسرخس  
٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م .

وكان من أثر هذه الخزيمة التي لحقت مسعوداً أن انتزع منه السلاجقة  
خراسان وجميع الأقاليم الغربية التابعة للدولة الغزنوية . وكانت هذه الخزيمة  
قاضية على جميع آمال مسعود بل وعايه نفسه إذ قتل بعد ذلك سنة ٤٣٣ هـ  
١٠٤١ م .

ويتوالى الملوك من الأمرة الغزنوية بعد ذلك ، وترداد في نفس الوقت  
قوة السلاجقة مما دعا بعض الملوك الغزنيين إلى مسالمتهم مثل ابراهيم  
الغزني الذي تجاوزت مدة حكمه أربعين عاماً امتازت بالسلم والرخاء .  
وكان سبب ذلك ما لحق إليه من تزويج ابنه مسعود الثالث إلى ابنة ملكشاه  
السلجوقي . واستغل ابراهيم هذه الصلة بينه وبين السلاجقة وانصرف إلى  
الإصلاح الداخلي . وكذلك كانت الحال في عهد مسعود الثالث ، إلا أن  
العلاقات قد ساءت بعد ذلك بين الطرفين . واستطاع السلاجقة ومن بعدهم  
الغوريون أن يستولوا على غزته وأن يقضوا على ملك الغزنيين بها . وفي  
الحروب التي دارت بين السلطان علاء الدين حسين « جهانسوز » من ملوك

(١) تاريخ بيهقي : ص ١١٤ نشر في وفيات

الغوريين وبين بهرام شاه الغزني سقطت غزنة واشتعلت الحرائق فيها حتى صيرتها رماداً ولم يعد لها بعد ذلك مجدها القديم .

وبعد سقوط غزنه وضياع الجزء الغربي من الدولة اتجه الغزيون إلى مقاطعاتهم في الشرق ، واتخذوا لاهور عاصمة لهم ، واستمروا يحكمون هناك إلى أن قضى الغوريون على الأسرة الغزنوية نهائياً . وكان ذلك في سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م .

### الشاهنامه :

كان نظم الشاهنامه عملاً قومياً أراد به الفردوسي أن يلفت أنظار مواطنيه الإيرانيين إلى ما يجري في بلادهم من سيطرة العناصر اللخيلة كالفزنيين الأتراك . وكان الفردوسي يريد أن يبيث النعرة القومية في الشعب الإيراني ليتحرر من حكم هؤلاء الأجانب ويسترد وطنه الذي ضاعت وحدته وتقسمت أرضه بين مجموعة من الحكام الغاصبين الذين انفرد كل منهم بجزء من الوطن الإيراني القديم حيث كون لنفسه فيه دولة مستقلة على حساب وحدة الوطن الإيراني ، ففي القرن الرابع الذي ولد فيه الفردوسي وشرع ينظم شاهنامته كان قد ظهر في كل ركن من أركان الدولة الساسانية القديمة دولة جديدة .

وكان عملاً جريئاً من الشاعر الإيراني المتعصب «الفردوسي» أن ينظم الشاهنامه التي تمجد الإيرانيين وتدعو إلى احياء أمجادهم في ظل دولة تركية متعصبة . ومن الطبيعي ألا يلتقي هذا الشاعر الإيراني المتعصب تقديراً كافياً على هذا العمل الأدبي الضخم من سلطان تركي متعصب لا يهمه في شيء أن يرتفع شأن الإيرانيين .

ولا تكتم الشاهنامه نزعة العداوة نحو الأتراك بل هي تعكس في صراحة شعور الإيرانيين نحو أعدائهم التقليديين الأتراك ، وتبدو في الشاهنامه نزعة الاحتقار واضحة نحو التورانيين ، فالعنصر

الایرانی طیب و کریم بینما یمثل العنصر التورانی اللوم والخسة . وما یمثل هذا الفرق بینهما موقف کودرز الایرانی من یران التورانی عنلما تبارزا : ففی هذه المبارزة عندما بدا أن الغلبة للبطل الایرانی کودرز وهرب من أمامه غریبه ترکی بعد أن سقط عن فرسه وكسرت ذراعه ولبأ إلى جبل هناك یحمیه رقی قلب البطل الایرانی لحال غریبه وتذكر مكانته بین قومه وما انتهى الیه أمره من الهوان بعد هزیمته فعرض علیه أن یؤمنه علی حیاته إذا طلب الأمان ، ولكن یران رفض أن یسلم بالهزیمه وأن یطلب الأمان وصمم علی أن یقاتل إلى آخر قطرة فی دمه وتحین الفرصة فرمی کودرز بسهم أصابه فی عضده اصابة شديدة . وهكذا أراد البطل الایرانی لغریبه التورانی الحیاة بینما تحین هذا الأخير الفرصة لیردیه . ولم یبالک کودرز نفسه من الغضب وسدد سهمه إلى بیزان فأرداه قتیلا . وهنا تصور لنا الشاهنامه الخلق الایرانی العظیم الذی تحلی به کودرز فانه من فرط غضبه من عدوه أراد أن یجتز رأسه بعد مصرعه ولكنه عدل عن ذلك احتراماً له بل إنه أراد أن یكرمه فی میتته فرفع علمه عند رأسه لیقی وجهه حرارة الشمس المحرقة فی تلك الصحراء .

وعندما تقدم یلسم أخو یران یطلب مبارزة رسم هزیء به البطل الایرانی کیو وأفهمه فی احتقار أن رسم یرفع عن مبارزة ترکی مثله (۱) .

وفی عهد کیکاوس نرى مثلاً آخر علی احتقار الایرانیین للتورانیین فعندما تغلب سهراب علی قلعة سبید دز معقل الایرانیین وكان یتولى حراستها هجیر قالت أخت هجیر لسهراب تسخر منه ان التورانیین لا ینبغی لهم أن یطمعوا فی الزواج من الایرانیین . تريد بذلك أن التورانیین أقل شأناً منهم . وتوجه له حدیثها أيضاً فتقول لسهراب انه لا یبدو من نسل التورانیین لما یظهر علیه من البهاء والروعة . كأنها بذلك تعنی أن التورانیین لا یتصفون بهذه الصفات . والحقیقة كان سهراب خلیطاً من الدم التورانی والایرانی

(۱) شاهنامه : ۶۹۷/۳

فهو ابن رستم البطل الايراني من ابنه ملك سمنجان التوراني . ولعل ما يجري في عروقه من الدماء الايرانية هي التي ألفت على مظهره هذه الروعة والجلال وعندما ذكر كيكائوس افراسياب نعتة بأنه من طينة أخرى غير طينة البشر وأن الله سواه خلقاً آخر (١) .

وعندما تقدم ييلسم لقتال رستم صاح بالايرائين : أين رستم الذي تزعمون فرد عليه كيو : ان رستم يرفع عن مبارزة تركي مثاك (٢) وفي موضع آخر تصف الشاهنامه التورانيين بالخداع (٣)

وترى الشاهنامه ان الخبث أصيل في طباع التورانيين وأنهم ورثوا هذا الخبث من جدتهم نور (٤) .

ومع كل هذه العداوة التي تنضح بها الشاهنامه نحو الأتراك فإن السلطان محموداً لم يضق صدره بها . وأما ما يتهم به من التقدير على الشاعر في المكافأة فلم يكن هو في الحقيقة مسئولاً عنه ، فقد كالأ أعداء الفردوسي له الاتهامات عند السلطان ، وحرصوه عليه ، وهم الذين نقصوا من قيمة المكافأة بعد أن استشارهم في المبلغ الذي يقده له (٥) . ومن الحق أن نقول إن السلطان كان كريماً معه متسامحاً . ولو أنه حاسبه على ما ورد في الشاهنامه من العداوة للأتراك وإثارة الفتن بين العنصر الايراني والتركي . وتحقير الجنس التركي نقول إنه لو حاسبه على كل هذا حساباً عسيراً يودي به إلى التهلكة لكان معذوراً فيما يفعل . وكان الملوك والسلاطين فيما مضى بأمرهم بالقتل لجرائم أقل من هذه بل لطفوة صغيرة أو لمجرد وشاية ليس لها أصل من الحقيقة .

(١) شاهنامه : ٥٥٦/٣

(٢) شاهنامه : ٦٩٧/٣

(٣) شاهنامه : ١٢٩٩/٥

(٤) شاهنامه : ١٣١٩/٥

(٥) جهار مقالة : المقالة الثانية ، الحكاية الخامسة

هاجر الأتراك من موطنهم الأصلية في شرق آسيا وشمالها (١) هجرات كثيرة إلى غربها . وليس من السهل احصاء هذه الهجرات لكثرتها . ولكن من الممكن أن نميز بين تلك الهجرات الكثيرة هجرتين كبيرتين يفصل بينهما في الزمان ما يقرب من قرنين . اتجهت الهجرة الأولى إلى غرب آسيا بينما اتجهت الثانية إلى جنوب آسيا . أما الهجرة الأولى فهي هجرة السلاجقة الذين اتجهوا إلى أقصى الغرب من قارة آسيا وكونوا ما يعرف الآن بالأتراك الغربيين . ومن هؤلاء الأتراك الغربيين جاء فيما بعد العثمانيون الذين قضوا على الامبراطورية البيزنطية .

أما الهجرة الكبرى الثانية فكانت هجرة المغول

وسكان السلاجقة في أول أمرهم رعاة لم يتسع موطنهم الأصلي في تركستان لهم بسبب قلة المرعى وازدحام البلاد فأتروا أن يهاجروا غرباً إلى بلاد ما وراء النهر .

ويقال من بين أسباب هجرة هؤلاء السلاجقة أن امرأة ملك الترك خافت على زوجها من سلجوق لما رأت من قوة شخصيته وازدياد نفوذه بين عشيرته ، وأوعزت إليه أن يتخلص منه ويقتله . وعندما بلغ سلجوق هذا الخبر جمع عشيرته ورحل معها إلى الغرب . وعندما حلوا فيها وراء

(١) يمكن أن نقسم الجنس التركي بصفة عامة إلى ثلاثة أقسام :

(أ) القسم الأول هو الأتراك الشماليون ويشمل القبائل التي تعيش في سيبيريا أمثال قبائل ياقوت وغيرها .

(ب) القسم الثاني ، القبائل الشرقية ويشمل تلك القبائل التي تعيش في تركستان الصينية والأوزبك وإلى هؤلاء ينسب تنار القرم والغولجا .

(ج) القسم الثالث : هو الأتراك الغربيون ويشمل هذا القسم الأتراك المغانين والآذر يجايته في فارس ، وقبائل التركمان .

النهر كانوا يشتون في نور احدى ضواحي بخارى ، يصيفون في الصغد بالقرب من شمرقند (١) .

وينسب هؤلاء السلاجقة إلى زعيمهم سلجوق (٢) .

وعندما بلغوا ما وراء النهر أرادوا أن يتجهوا بعد ذلك إلى خراسان التي كانت خاضعة للسلطان محمود الغزنوي ، فكان عليهم أن يحصلوا على اذن من السلطان بالإقامة في ممتلكاته . ويروي الكرديزي كيف سمح لهم السلطان بذلك ، فقد أرسلوا اليه وفدأ من رؤسائهم وقوادهم يتضرعون اليه أن ينقذهم مما حاق بهم في بلادهم من الظلم والأذى . وأردفوا بعد ذلك بغروره كمن يسمح لهم بالإقامة في خراسان فذكروا أنهم أربعة آلاف أسرة فاذا سمح لهم السلطان بعبور النهر ليقيموا في خراسان فسيجد منهم خيراً كثيراً وعوناً عظيماً إذ ينضمون إلى جنده ويقاتلون تحت رايته . وقد رق قلب محمود لهم وطيب خاطرهم وسمح لهم بعبور النهر . ولم يكن محمود بعيد النظر فيما فعل . وكان أمير طوس أبو الحارث أرسلان الجاذب أبعد منه نظراً فقد رأى أن ما فعله السلطان كان خطأ . ولهذا اقترح عليه أن يكمل السلطان أمرهم اليه حتى يبديهم أو يقلم أظفارهم على أقل تقدير فلا يخشى بأسهم بعد ذلك . ولكن السلطان محمود استنكر هذا الاقتراح الذي يدل على قسوة القلب ولم يوافق عليه ، فحذرته أمير طوس وخوفه من سوء العاقبة (٣) . وقد أثبتت الأيام فيما بعد صدق فراسة هذا الأمير وحسن تقديره للأمور لأن القضاء على دولة الغزنويين بعد ذلك تم على أيدي هؤلاء السلاجقة .

ويصف لنا البيهقي بالتفصيل الحرب التي دارت بين السلطان مسعود

(١) الراوندي : راحة الصنور ، الترجمة العربية لابراهيم الشواحي ، عبد النعيم حسنين ،

نواد الصياد ص ١٤٥

(٢) يذكر بارتولد ان سلجوق في أصلها ليست اسم علم ولكنها تحريف كلمة سوباشي

بمعنى قائد الجيش ص ١٠٠ من تاريخ الترك في آسيا الوسطى .

(٣) تاريخ كرديزي : ص ٦٧ ط طهران

الغزني والسلاجقة في مرو (دندانقان) حيث انتصر السلاجقة وقضوا بذلك على الدولة الغزنية . ويذكر البيهقي أن السلطان مسعوداً كان قد رتب خطته على أن يطوق السلاجقة وأن يقطع عليهم خط الرجعة . ولكن مسعوداً ، كما يبدو من رواية البيهقي ، لم يقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه في هذه الحرب حتى قدرها لأنه نام بعد العشاء نوماً عميقاً وهو على قبله . ولم يجروا الفيالة على الإصرار بالقبيلة خوفاً من إيقاظ السلطان وحرصاً على راحته . وظل السلطان يغط في نومه حتى الفجر فتأخر بجيشه عن اللحاق بالسلاجقة لحصارهم وتطويرهم . وكانت هذه فرصة عظيمة لطغرل الذي كان قد أدرك خطة السلطان . وكان عامل الوقت شديد الأهمية والخطورة بالنسبة للسلاجقة فأمرعوا بالهروب لينجوا من التطويق . وكانوا في هروبهم يضطرون إلى التخفف من أحلامهم وأمتعتهم توخياً للسرعة وطلباً للنجاة . وعندما وصل السلطان بجيشه وجدهم قد رحلوا وفشلت بذلك الخطة التي رتبها نتيجة لتأخره عن اللحاق بهم بسبب غلبة النوم عليه . وقد اشتد به الغضب وقتذاك وألقى اللوم على رجاله .

وعلم السلطان بعد ذلك أن السلاجقة بلغوا باورد فجند في أثرهم ولكنه بعد رحلة شاقة لم يظفر بهم لأنهم كانوا قد رحلوا عنها قبل وصوله . ولو أن السلطان تابع سيره لكان من الممكن أن يلحق بهم ولكنه تعطل فترة في باورد . وكان هذا الوقت الضائع في باورد سبباً في تمكين السلاجقة من الفرار وتعويق السلطان مسعود عن اللحاق بهم . ويتابع البيهقي وصف هذه المطاردة المثيرة بين جيش السلطان مسعود وجيش السلاجقة بقيادة طغرل فيذكر أن الأعداء كانوا في خلال هذه المطاردة في غاية من الفرع وشدة من الجهد والتعب حتى إن طغرل كان يتام وهو في كامل عدته ولباسه . ولكن السلطان كما أشرنا من قبل لم يكن يقدر أهمية عامل الزمن في التعجيل بالقضاء على أعدائه . والدليل على هذا أنه لم يكن يواصل مطاردة العدو المنهك المدعور بل كان يتلبث في كل بلدة يصل إليها . ففي نسا مثلاً

أقام بضعة أيام يشرب ويستمتع بجمال تلك الناحية (١) . ثم اتجه بعد ذلك عن طريق باورد واستوا إلى نيشابور حيث استقبله هناك قضاتها وعلمائها وفقهاؤها . ولم تكن نيشابور في هذه المرة كما عهدنا من قبل فقد عمها الخراب واشتد فيها الغلاء حتى عز القوت وهلك الناس . ومن أمثلة استهتاره بحظورة المهمة ، وإضاعة الوقت ، ما كان من احتفاله في مدينة نيشابور بعيد النوروز يوم الخميس الثامن عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٣١ هـ (٢) . ومن نيشابور اتجه السلطان إلى طوس ونزل في الصحراء على مفترق طرق سرخس ونسا وباورد واستوا ونيشابور . وفي نفس هذا الوقت كان الأعداء يتحركون . وسار السلطان متجهاً إلى سرخس حتى إذا بلغها ألفاها خراباً ولم يجد بها مظهراً من مظاهر الحياة فلا ماء ولا زرع ولا سكان . وضاعت الحال بالسلطان فنصحته رجاله بالذهاب إلى هراة حيث يتوفر العلف ثم يقصدون بعد ذلك إلى العدو . ولكن السلطان الذي كثر تهاونه فيما سبق لم يقبل النصيح وأصر على الذهاب إلى مرو حيث يقم العدو لأنه رغب في أن يعجل بقتاله ليتفرغ نهائياً من أمره . وتظاهر رجاله بقبول الفكرة ولكنهم رأوا أن يرسلوا إليه الرسل مرة أخرى لعله يعدل ، ولكن السلطان سب الرسل وأهانهم وصمم على موقفه . وكان يهتم قاداته وروساء جيشه بالخور والضعف أمام السلاجقة . وكان الطريق إلى مرو محفوظاً بالمخاطر بسبب القحط وجفاف الأرض ، ومع ذلك فقد جاءهم أمر صريح من السلطان بعد صلاة العصر بالاستعداد للسفر في اليوم التالي إلى مرو . وجاء اليوم التالي وكان الثاني من رمضان فتحرك الجيش في طريق مرو . ولكن أسباب الهزيمة كانت قد تجمعت على الجيش من أول الأمر ، فالجور قاتل ، والأرض مجذبة لأماء ولا رزق ، والجنود مرهقون بسبب الصوم ، والدواب هزيلة من الجوع . وكان الجنود يتوقعون أن يعود السلطان من حيث أتى عندما يرى جيشه على هذه الحالة السيئة . ولكنه

(١) تاريخ بهمنى : ص ٦٠٢ نشر غنى وفاض ط تهران

(٢) نفس المصدر : ص ٦١١

ركب رأسه واستمر في سيره . وعندما تلاقى الجيشان في يوم الخميس الثامن من رمضان كان اليأس قد غلب على جيش السلطان . وفي المناوشات التي دارت بين الجيش أدرك السلاجقة مدى الضعف واليأس الذي يعانيه جيش السلطان فازدادوا جرأة وإقداماً بينما كان جيش مسعود يزداد تخاذلاً ويأساً وعزوفاً عن القتال . ومع أن السلطان دحهم على العدو بشدة وقوة إلا أنه لم يجد عوناً من جنده الذين انقلبوا على أكتافهم ولم يكن لهم من هم سوى طلب النجاة . هذا بالإضافة إلى أن غلمان السلطان خانوه في القتال ورأوا من الأصلاح لهم أن ينضموا إلى صفوف أعدائه . وعند حصن دقان كان نظام الجيش كله قد اضطرب واختل وانفكس لأعداء عليه من كل جانب يقتلون ويهيمون . نتيجة الخزيمة في النهاية بالسلطان وغنم السلاجقة في تلك الحرب غنائم طائلة (١) .

وبعد هذه الخزيمة سقطت خراسان كلها في أيدي السلاجقة وبدأ شأن الغزنين في الأفول .

وبعد أن استطاع طغرل بك القضاء على ممتلكات أندلس الغزنية في الجانب الغربي من النهر (خراسان) وطردهم منه إلى ممتلكاتهم في الشرق، همه القضاء على أسرة إيرانية كانت تسيطر على أجزاء كبيرة من بلاد إيران هي أسرة البويهيين (٢) . وبدمياط هزماء البويهيين خلصت جميع الأراضي الإيرانية للأتراك السلاجقة .

ويبالغ الراوندى في وصف طغرل بك وصفاء عقيدته وشهامة تربيته وحرصه على الدين .

وقد فعل طغرل عقب استيلائه على السلطنة ذلك الإجراء التقليدي

(١) تاريخ يهقى : ص ٦٠٢ نشر غنى وفاض والترجمة العربية لشهاب ونشأت ص ٦٦٣  
 (٢) بعض المؤرخين يسمون البويهيين إلى أصل ديكى . وقد قسم البويهيين نيم فارس والعراق فيما بينهم ، كما تولوا الحكم في مناطق أخرى من إيران مثل كرمان وخرم واهبان وأصفهان .

الذي كان يفعله رؤساء تلك الدول الإسلامية من إظهار الخضوع للخليفة بغداد باعتباره رمز السطة الدينية في العالم الإسلامي كله .

وبينما كان طغرل بك يقضى على دولة البويهيين ويستولى على ممتلكاتهم توفي الخليفة القادر بالله سنة ٤٢٢ هـ وبويع بعده ابنه الخليفة القائم بأمر الله . وكان طبيعياً أن يستنجد الخليفة القائم بطغرل بك لانقاذه من شر البساسيري الذي كان قد استولى على السطة في بغداد . وظل طغرل بك يلاحقه حتى قتله .

وقد قسم السلاجقة بلاد إيران فيما بينهم فنال جفرى بك ، أكبر الأخوة إقليم خراسان وجبل من مرو عاصمة له . وخص «موسى كلان» ولاية بست وهراة وسجستان . وتولى قاورد أكبر أبناء جفرى بك أمر الطبيين وكرمان . أما طغرل بك نفسه فقد جعل عاصمته في الري .

وأدى طغرل بك للخليفة العباسي خدمات كبرى إذ خلاصه من شر البويهيين الذين استبدوا بالأمر وجعلوا الخليفة لعبة في أيديهم كما خلاصه أيضاً من شر البساسيري وقضى على فتنته . ولم يكن ذلك كله بلا مقابل فقد انتقلت السطة في العالم الإسلامي إلى السلاجقة ولم تعد إلى الخليفة .

وعندما توفي طغرل بك لم يكن له وريث ذكر يرث السطة من بعده فتولاها ابن أخيه جفرى بك وهو ألب أرسلان . وهكذا في سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م أصبح ألب أرسلان سلطاناً على دولة تمتد من نهر جيحون حتى الفرات ومن بحر الخزر حتى الخليج الفارسي . و كان وزيره نظام الملك عالماً من أعلام السياسة بالشرق ، وله دور كبير في توجيه سياسة الدولة السلجوقية . وقد وزر لألب أرسلان وملكشاه من بعده . وظل يباشر مهام الوزارة ثلاثين عاماً .

ونظام الملك إيراني الأصل ولد في طوس سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ونال من التعليم قدراً كبيراً جعله أهلاً لتوجيه سياسة تلك الدولة العظيمة . ومع أنه إيراني إلا أنه أخلص في خدمة الدولة السلجوقية التركية . وكان

هو الآخر سنى المذهب وعدواً للدوداً للشيعة والاسماعيلية منهم بوجه خاص .  
ويبدو من هذا أن نظام الملك لم يكن يشعر بقوميته الإيرانية . ولا لتعليل  
لذلك عندنا إلا استغراقه في الناحية الدينية استغراقاً وجه كل حماسه وحمته  
لخدمة الدين الإسلامى الذى يجمع بين المسلمين على اختلاف أوطانهم  
وقومياتهم . فكانت الرابطة الدينية عنده تغلب على النزعة القومية على عكس  
ما رأيناه عند النردوسى مثلاً . وبسبب هذه النزعة الدينية الغالبة عليه  
يمكن أن نفهم إخلاصه للأتراك السلاجقة الذين قاموا هم أيضاً بدور كبير  
فى خدمة الإسلام ، كما يمكن أن نفهم سر عداوته للملحدين والكفار  
وأصحاب البدع الذين يريدون حدم الإسلام وحدم الدولة الإسلامية .

وأعتقد أن موقف نظام الملك الإيرانى من تدعيم أركان الدولة السلجوقية  
التركية واهتمامه بأمر الدين وحده وإهماله النزعة القومية قد ضايق العنصر  
الإيرانى ودفعه إلى التخلص منه . وفى رأى أن تقتل نظام الملك كان مظهر  
لسخط العنصر الإيرانى على الأتراك الذين كانوا يحتلون بلاده وعلى الذين  
عاونوهم على هذا الاحتلال ووطدوا لهم الحكم مثل نظام الملك . ولما كان  
الشعب الإيرانى فى ذلك الوقت عاجزاً عن الانتقام الإيجابى المباشر من هؤلاء  
الأتراك أو قتالهم وطردهم من البلاد لضعفه فقد لجأ إلى هذه الطريقة السلبية  
للتخلص من أعوانهم .

فالإيرانيون عامة كرهوا هذا الحكم التركى باعتباره حكماً دخيلاً  
يقوم على الاحتلال والمارقون منهم بصفة خاصة عن دين الإسلام كرهوا  
أيضاً هذا الحكم التركى الذى يوطد أركان الإسلام فى البلاد . وسعى  
الفرىقان ، الوطنيون والمارقون عن الدين ، للتخلص من هذا الحكم  
وأصبحت بذلك الدولة السلجوقية الحاكمة هدفاً يراد تفويضه من الناحيتين  
السياسية القومية والدينية . وأصبح نظام الملك هو الآخر عدواً لدوداً  
للفريقين .

ومما يؤيد رأينا فى أن قتل نظام الملك كان مظهرأ من مظاهر الصراع

القوى الدينية بين الأتراك الحاكمين والإيرانيين المغلوبين على أمرهم  
ما يأتي :

١ - إن قاتل نظام الملك كان إيرانياً متحمساً ضلته طائفة الإسماعيلية  
ودفعته إلى ارتكاب هذه الجريمة .

٢ - بين نظام الملك والإسماعيلية عداوة سافرة فهو سني وهم شيعة  
وكان نظام الملك يكردهم ويضيق عليهم ويتهمهم بالمروق عن الدين .  
والإسماعيلية باعتبارهم شعبة يشارون إلى الترس . ونظام الملك لا يؤمن بالزعة  
القرمية الفارسية ويجادى الشيعة . وليس هناك ما يمنع من وجهة نظر هؤلاء  
الشيعة التزميين من أن يعملوا على التخلص من هذا الرجل الذي يدير  
شئون الدولة ويقف عقبة في سبيل زيادة العنصر الإيراني والمذهب الشيعي .

وقد ظهر هؤلاء الإسماعيلية عندما تأسست الدولة الفاطمية . وكان  
هؤلاء الفاطميون يسعون لتبنيهم من الأئمة فاطمة رضي الله عنها بنت رسول  
الله صلى الله عليه وسلم . وهذا التمسك لم يسلم من الطعن في صحته . وقد أعلن  
خصوص هؤلاء الفاطميين أنهم من ذرية الملحد الفارسي «عبد الله بن ميمون  
القداح» . وإذا صح هذا التمسك فعنه أن الفاطميين من سلالة الترس .  
ومن هنا فهم لماذا كان محروص هؤلاء الفاطميون أو الإسماعيلية على القضاء  
على نظام الملك . صحيح أن نظام الملك قد لا يكون مقصوداً لذاته ولكن الواضح  
أنه كان ركن هذه الدولة التركية وقد يكون في القضاء عليه زعزعة لثباتها .

٣ - كان نظام الملك يقاوم الدعوات الهدامة التي بدأت تنتشر في  
بلاده . وكان يعتبر دعوة هؤلاء الإسماعيلية أو الحشاشين من تلك الدعوات  
التي يجب القضاء عليها . وكان اهتمام الدولة الفاطمية بنشر دعوتها في البلاد  
الإسلامية - وخاصة في إيران - دليلاً على رغبتها في تقويض الاتجاه  
المذهبي السائد في إيران أيام السلاجقة ثم تقويض النظام كله فيما بعد بالقضاء  
على الحكم التركي وإحلال الحكم الإيراني محله . ولم يخف على الفاطميين  
خطورة نظام الملك على اتجاهاتهم المذهبية والسياسية . وكان الرجل يقاومهم

بكل سلاح إيماناً منه بأنهم يفسدون في الدين والأرض . وعلى العموم  
كان يشكل خطراً كبيراً عليهم .

وفي «سياسة نامه» فصول كثيرة يهاجم فيها نظام الملك هؤلاء المنتسدين .  
فتبين الفصل الثالث والأربعين يكشف أحوال هؤلاء المنتسدين الذين هم  
أعداء الملك والاسلام (١) . ويصنّفهم بأنهم كالكلاب التي تخرج من مخابها  
إذا عرض للدولة عارض من الضعف . وهم يخرجون على الدولة في ذلك  
الوقت . ويدعون التشيع وترداد قرّتهم . وهم لا يتركرون وسيلة من رسائل  
الإفساد إلا اتبعوها من قبيل القليل والنقل وإحداث البدع . وهم يدعون  
الإسلام بالقول وينمّون أنمال الكفار . وباطلهم بخلاف ظاهريهم . وتوّلّم  
بخلاف عملهم . وليس هناك عارو أحدث منهم ولا أسام منهم على دين محمد  
المصطفى صلى الله عليه وسلم . ويذكر نظام الملك أن يرغب في هذا الفصل  
من كتابه أن يبين للسلطان كم خرجوا على الدولة وكم ستمكوا وكم أفسدوا  
واكنه لن يستطيع أن يعمل ذلك بالتفصيل . ولهذا ظهر بكنهه بالتفصيل منه  
حتى يعلم السلطان أمرهم من بدايته إلى نهايته .

ويرد نظام الملك أصول هذه الدعوات المأبغة إلى المذاهب الإيرانية  
التقدمية كذهب مزدك . ويعقد فصلاً خاصاً عن خروج مزدك ويشرح  
مذهبه وكيف كان يقتله على يد أنوشيروان النادل . وغرضه من سرد  
قصة مزدك وشرح مذهبه أن يعلم الناس والاساطان الأصول الخبيثة التي  
تنطوى عليها دعوتهم حتى يتعظ بها العقلاء ويتذكروها (٢) .

وفي الفصل الخامس والأربعين يتحدث نظام الملك عن خروج سبباد كبير  
على المسلمين من نيشابور إلى الري وفتنته (٣) .

(١) سياسة نامه : ص ١٦٤ ط شيفر .

(٢) نفس المصدر : ص ١٦٦

(٣) نفس المصدر : ص ١٨٢

وفي الفصل السادس والأربعين يتحدث نظام الملك عن خروج الباطنية في خراسان وما وراء النهر (١) .

وفي الفصل السابع والأربعين يتعرض نظام الملك لخروج الباطنية في خراسان وما وراء النهر (٢) . ويختم هذا الفصل بالإشارة إلى أن هؤلاء الباطنية ومن شاكلهم من الحرمية كانوا يسعون إلى القضاء على الإسلام . ويذكر أن هؤلاء الملحدين كانوا يتظاهرون بحجة آل الرسول عليه السلام حتى يصيدوا الناس ويجذبوهم إلى مبادئهم الهدامة فإذا قوى أمرهم وطوؤوا الناس تحت جناحهم بذلوا جهدهم حتى يقضوا على الشريعة فهم في الحقيقة أعداء آل الرسول ، وليس عندهم رحمة على أحد وليس هناك قوم من الكافرين أقسى قلباً منهم .

ومن قراءة هذه التعمول يتضح أن نظام الملك كان يتهم هؤلاء الإسماعيلية صراحة بالكفر والمروق عن الدين وإفساد الناس والمجتمع وأهم إنهما كانوا يدعون التشيع ليقتربوا به إلى الناس ويضمروهم إلى صفوفهم بينما هم في الحقيقة يخفون مذاهب خبيثة ترجع في أصولها إلى تلك المذاهب الهدامة التي عرفها المجتمع الإيراني قبل الإسلام وبعده كالمزدكية والخرمية والباطنية وغيرها .

وفما كتبه نظام الملك ما يدل على أنه فهم هؤلاء القوم على حقيقتهم وكشف ألاعيبهم أمام الناس والديلمطان . وكان هذا في نظر هؤلاء الإسماعيلية سبياً كافياً للقضاء عليه والاختصاص منه .

٤ — كان الحسن بن الصباح الإيراني أحد دعاة الإسماعيلية البارزين . وقد رحل من إيران سراً إلى مصر حيث اتصل بالخليفة الفاطمي المستنصر وبالله الذي كثره بنشر الدعوة في إيران . وبدأ الحسن أولاً يعمل وفق المخطط المرسوم له من قبل الفاطميين في مصر حتى إذا قوى أمره في إيران ومات

(١) نفس المصدر : ص ١٨٢

(٢) نفس المصدر : ص ١٨٧

الخليفة المستنصر انفصل عن مركز الدعوة في مصر وبدأ يعمل لحسابه الخاص . ووضح عند ذلك أن المسألة لم تكن مجرد خلاف مذهبي بين السنة والشيعة ولكنها كانت مسألة سياسية أبعد من هذا .

٥ - يشير براون في حديثه عن مذهب الإسماعيلية إلى أنهم يهتمون بالعدد سبعة (١) ، فهناك مثلاً سبع فترات يأتي في كل فترة منها نبي . وكل نبي من هؤلاء الأنبياء السبعة يعقبه سبعة أئمة . وكان على رأس الفترة السادسة النبي محمد عليه الصلاة والسلام . أما الفترة السابعة فتبدأ بالامام السابع إسماعيل . ويتألف الكون عندهم من مراتب الوجود السبع . وفي نظرهم أن المرید لا يستطيع أن يصل إلى كنه مذهبهم قبل أن يجرب بالمقامات السبعة .

ويذكر براون أن الداعي كان يجذب اهتمام العضو الجديد بمجموعة من الأسئلة تقوم على العدد سبعة كأن يسأله مثلاً لماذا خلق الله الكون في سبعة أيام ، ولماذا جعل السموات سبعاً ، والأرضين سبعاً ، والبحار سبعة . ولماذا جعل الله فاتحة الكتاب تتألف من سبع آيات ، ولماذا خلق الله العمود الفقري في الانسان من فقرات سبع في العنق . واثنى عشرة في الظهر (يشيرون بذلك إلى أن الفقرات السبع في العنق كناية عن الأئمة السبعة الذين يأتون على رأس كل فترة من الفترات كما سبق ، ويساعدون النقباء وعددهم اثنا عشر) (٢) .

واهتمام الإسماعيلية بالعدد سبعة يمثل اهتمام الإيرانيين القدماء به . صحيح أن المسلمين يهتمون أيضاً بهذا العدد ولكنه كان معروفاً قبل هذا في المجتمع الإيراني القديم . ومن هنا يسهل أن نستنتج أن اهتمام الإسماعيلية بالعدد سبعة كان إحياء لعادة إيرانية قديمة .

Browe : A Literary History of Persia p. 197 vol. II (١)

والترجمة العربية للشواربي ص ٢٤٣

(٢) نفس المصدر ص ١٩٨ والترجمة العربية ص ٢٤٤

٦ - فإذا انتقلنا إلى داعية إسماعيل آخر هو ناصر خسرو وجدنا في تاريخه ودعوته ما يؤيد كل ما أشرنا إليه .

ولد ناصر خسرو في ضواحي بلخ وعاش جانباً من حياته في عهد الدولة الغزنوية ثم عاصر الدولة السلجوقية واشتهل مدة كاتباً للديوان السلجوقي ، وقام ناصر خسرو بعدد من الرحلات وزار بلاداً كثيرة من بينها مصر حيث انتهى بأثناء المذهب الإسماعيلي فلقنوه أصول هذا المذهب ، فلما عاد بعد ذلك إلى بلخ أخذ يبت هذه الدعوة الإسماعيلية هناك فلقى مقاومة شديدة من الدولة السلجوقية اضطرتته إلى الهروب والاختفاء . وكانت عقيدته ووضع تجريح وطن . ولا جدال في أن هذا التجريح والظمن كان لهما ما يبررهما من آراء ناصر خسرو نفسه ومن بعض أشعاره الإلحادية . وفضلاً عن هذا فإنه كان من المؤمنين بمذهب الأويل . وكتبه المختلفة مثل «زاد المسافرين» و «وجه دين» تنضح بتأييد عقائد الباطنيين . وهي عقائد تقوم على التزيغ وإلهاد الدين . كما أن الشاعر يبالغ في الثناء على علي وشيعته والأئمة الزاطميين وعلى رأسهم الخليفة المستنصر كما يثني على سلمان الفارسي والمختار .

وظاهر من هذا أن ناصر خسرو كان إيرانياً متعصباً . ولاشك في أن من كان مثله على هذه الدرجة من التعصب القومي يميل إلى الدعوات التي أهدافه التزوية وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف لم يجد مانعاً من تكذب طريق الدين الصحيح .

ولم يكن نظام الملك متجنباً على هؤلاء . فهناك من معاصري هذه الأحداث عبد القاهر البغدادي المتوفى ٤٢٩ هـ صاحب الفرق بين الفرق . وهو يحدثنا في مؤلفه هذا عن أن «ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس» (١) . ويذكر البغدادي في موضع آخر أن أصحاب التواريخ يقررون «أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية

(١) عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٨٢

كانوا من أولاد الجوس وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ولم يجسروا على إظهاره خوفاً من سيوف المسلمين ، فوضع الأبحار منهم أسماً من قبلها منهم صار في الباطن إلى تفضيل أديان الجوس وتأولوا آيات القرآن وسنن النبي عليه السلام على موافقة أسسهم » (١) ويذكر في موضع ثالث أن أكثر المتكلمين في بيان أغراض الباطنية قد ذهبوا إلى «أن أغراض الباطنية الدعوة إلى دين الجوس بالتأويلات التي يتأولون عليها القرآن والسنة واستدلوا على ذلك بأن زعيمهم الأول ميمون بن ديصان كان مجوسياً من سبي الأهواز ودعا ابنه عبد الله بن ميمون الناس إلى دين أبيه » (٢) ويضرب أمثلة لتأويلاتهم كل ركن من أركان الشريعة تأويلاً يورث تضايلاً حين يزعمون أن معنى الصلاة والوالة إمامهم ، والحج زيارته وإدمان خدمته ، والمراد بالصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام .. الخ (٣) .

وبأى أبو حامد الغزالي - وهو الآخر من معاصري هذه الأحداث - المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ فيكشف كثيراً من أساليب هؤلاء الباطنية في رسالته «فضائح الباطنية» .

يتحدث الغزالي عن بيان الباعث للباطنية على نصب هذه الدعوة وإفادته هذه البدعة فيقول إن الذين يدعون هذه الدعوة الباطنية لا ينتسبون إلى ملة وإن غاية هذه الدعوة «الانسلاخ من الدين كالانسلاخ من الشعرة من العجين» ، وإن القائمين بأمرها طائفة من الجوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية الملاحدين (٤)

وفي موضع آخر يذكر الغزالي أن من حيل هؤلاء الباطنية لاستدراج الناس حيلة التشكيك . وتقوم هذه الحيلة على تشكيك الناس في دينهم ، وإثارة الأسئلة المحيرة في شئون الدين ليتزعزع إيمانهم ومعتقدهم . ومن أمثلة ما يفعلونه في هذا الباب - باب التشكيك - أن يسأل الداعي مثلاً ما بال

(١) نفس المصدر ص ٢٨٥

(٢) نفس المصدر ص ٢٩٣

(٣) نفس المصدر .

(٤) فضائح الباطنية : ص ١٨ نشر وزارة الثقافة

الحائض تقضى الصوم دون الصلاة؟ ما بال الاغتسال يجب من المنى الطاهر ولا يجب من البول النجس؟ ما بال أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة؟ .. الخ هذه الأسئلة المحيضة . ويقول الغزالي «ولا يزال يورد عليه هذا الجنس حتى يشككه» (١) .

وفي موضع ثالث بين الغزالي السبب في رواج حيلة هؤلاء الباطنية وانتشار دعوتهم مع ركائفة حججهم وفساد طريقهم (٢) فيقول إن الذين يستجيبون لهؤلاء الباطنية ثمانية أصناف :

الصنف الأول : طائفة ضعاف العقول

الصنف الثاني : طائفة الموتورين الذين جاء الإسلام فقضى على أمجادهم القديمة فزال عنهم الخلد وزالت عنهم الدولة كأبناء الأكاسرة والدهاقين وأولاد الجحوس . فهؤلاء موتورون اشتعلت نيران الحقد في قلوبهم فهم يشهزون كل فرصة ويتبعون كل وسيلة للانتقام وطلب الثأر .

الصنف الثالث : طائفة الطموحين الذين يتطلعون إلى المجد والاستعلاء فهؤلاء يسارعون إلى اعتناق كل مذهب إذا وعدوا بتحقيق آمالهم .

الصنف الرابع : طائفة الذين يحبون أن يتميزوا على سائر الناس فيتبعون الضلالات ويروجون الأمور التي تخالف ما عليه آراء الناس ليعرف اسمهم وينشر ذكركم .

الصنف الخامس : طائفة الذين يسلكون طريق النظر وإعمال الفكر ولكنهم لم يصلوا بعد إلى مرحلة النضج والاستقلال في الرأي .

الصنف السادس : طائفة نشأت بين الشيعة والروافض فهم يعتقدون بحكم نشأتهم ما يعتقدوه هؤلاء .

(١) نفس المصدر : ص ٢٦

(٢) نفس المصدر : ص ٣٣

الصف السابع : طائفة الملحدين من الفلاسفة والشوية والمتحيرة .

الصف الثامن : طائفة المنحلين وأرباب الشهوات . وهؤلاء يثقل عليهم التيام بالنروض والتكاليف ، ولذلك فهم يروجون للباطنية وغيرها من المذاهب الهدامة التي ترفع عنهم التكاليف وتعفيهم من أداء الفروض وتيسر لهم سبيل الشهوة واللذة .

وهناك مؤلف ثالث جاء بعد البغدادي والغزالي هو الشهرستاني صاحب الملل والنحل المتوفى ٨٥٤٨ . وهو يتحدث عنهم بما لا يخرج عما ذكرنا . ويذكر أن أشهر ألقاب هؤلاء الإسماعيلية هو الباطنية . ويشرح سبب ذلك فيقول « إنما لزمهم هذا لقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً وأكل تنزيل تأويله (١) كما أنهم يسمون بالعراق الباطنية والقرامطة والمزدكية وبخراسان العلوية والملحدة . وهذا يبين بوضوح الأصول التي يستند إليها هؤلاء الإسماعيلية أو الباطنية في دعاوهم . وهي أصول تخرج بصاحبها عن الاسلام وترده إلى المعتقدات الخوسية القديمة .

وجاء بعد ألب أرسلان السلطان ملكشاه . وكان لهذا السلطان أعمال -  
حربية مجيدة . وأكن إصلاحاته في ميدان السلم فاقتها . وقد قضى السنوات الخمس الأولى من حكمه في حروب ثم دانت له البلاد فقضى ما بقى من حكمه وهو خمسة عشر عاماً في الإصلاح ورعاية العلوم والآداب مما جعل عهده من أزهى العهود في تاريخ العالم الإسلامي . بنى ملكشاه في سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م المرصد الذي كان يشتغل فيه العالم الفلكي والشاعر المعروف عمر الخيام . وانتهت نتيجة أبحاثه الفلكية إلى وضع التقويم المعروف بالتقويم الجلالى . وعرف عن ملكشاه أنه كان سلطاناً عادلاً أسبغ عدله وحمانيته على جميع رعاياه حتى لم يبق في عهده مظلوم واحد . ويقول الراوندى إن أصحاب الظلمات كانوا يتقدمون بظلاماتهم إلى الملك نفسه (٢) .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ١/١٩٢ تحقيق سيد كيلاني ١٩٦١

(٢) راحة الصدور : الترجمة العربية ص ٢٥٥

واتخذ ملكشاه أصفهان عاصمة للملكه . ونشطت في عهده حركة البناء والتعمير . كما أنه أنشأ كثيراً من الحدائق أمثال (باغ كاران) و(بيت الماء) و(باغ أحمد سياه) و(باغ دشت كور) وغيرها (١) .

ولم يكن في تاريخ ملكشاه ما يعاب سوى غدره بوزيره المخلص الأمين نظام الملك الذي عزله بناء على وشايات كاذبة ، ثم لقي مصرعه بعد وقت قصير من عزله . ولم يعيش ملكشاه بعد نظام الملك سوى شهر واحد وتوفى في سن الثامنة والثلاثين . وفي هذا المعنى يقول الشاعر المعزى ما معناه :  
ففي شهر واحد صعد إلى الفردوس الوزير الشيخ ، ولحقه في الشهر التالي الملك الشاب . فواحسرتاه على مثل ذلك الملك ومثل هذا الوزير . فانظر إلى قهر الله وتأهل عجز السلطان» (٢) .

ومن الشخصيات البارزة في عهد السلاجقة السلطان سنجر (٥١١ - ٥٥٢ / ١١١٧ - ١١٥٧ م) . وفي عهد هذا السلطان اتسعت رقعة الدولة اتساعاً كبيراً فامتدت من حدود كاشغر إلى أقصى بلاد اليمن وهدكة والطائف وكرمان وعمان وآذربيجان إلى حدود الروم (٣) . وحكم هذا السلطان لمدة طويلة بلغت أربعين سنة فضلاً عن عشرين سنة سابقة قضاهها حاكماً على خراسان ويقول الراوندي إن خراسان في عهده أصبحت كعبة القصاد (٤) . ويصفه الراوندي وصفاً دقيقاً فيقول إنه كان ساذجاً في الصغير من الأمور ولكنه كان قوى العزيمة بعيد النظر في الجسيم منها (٥) .

(١) نفس المصدر : ص ٢٠٦

(٢) رفت در يك مه بفردوس برين دستور بير  
شاه برنا در بي آر رفت در ماه دكر  
أى درينا آبخنان شاهى ووزيرى اينجينين  
قهر يزدانى به بين و عجز سلطانى نكر

(٣) راحة الصلور : ص ٢٦٠

(٤) نفس المصدر والصفحة

(٥) نفس المصدر : ص ٢٥٦

وبالغ أراوندى فى الحديث عن شجاعته ومقدرته فى القتال فىقول إنه منذ أن كان حاكماً على خراسان من قبل أخيه بركياروق إلى أن قضى فى الملك أربعين سنة لم يتعرض قط لهزيمة (١) . ولكن الواقع يخالف هذا ، ففى سنة ٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م انهزم السلطان سنجر أمام أتسز الذى ملك خوارزم وأعلن هناك استقلاله التام . وفى سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م لقي أشنع هزأته على يد قبائل تركية أخرى تنحدر من نفس الأصل الذى انحدر منه السلاجقة (الأتراك الغز) وهى قبائل القراخانيين . وهنا يعيد التاريخ نفسه فان القراخانيين عندما عبروا النهر فى سبيل البحث عن المراعى حصلوا من سنجر على إذن بالإقامة فى ممتلكاته فى ختلان ، صغانيان ، نواحى بلخ تماماً كما فعل السلاجقة أنفسهم مع السلطان محمود الغزنى . ولكنهم بعد أن توطنوا فى تلك الأنحاء شرعوا يشيرون المتاعب فى وجه حاكم بلخ الذى شكاهم إلى السلطان وطلب إخضاعهم . وما أن سمع السلطان بهذا العصيان الذى تنشره قبائل الغزنى تلك الأنحاء حتى أسرع إلى تأديبهم ولكنه منى بالهزيمة فى سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م ووقع أسيراً فى أيديهم . وشرع الغز يغيرون على العاصمة نهمها وقتل أدهشهم ما رأوا فى ضواحي مرو من المراعى الغنية والخيرات فأقباراً فى شراهة يسرقون وينهبون كل ما تقع عليه عيونهم . ولم تسلم خراسان من سلبهم وتدميرهم . ونحولت بلادها خراباً . وعندما استطاع سنجر أن ينجو من الأسر هاله ما رآه فى عاصمته وفى غيرها من بلاده من التخريب والدمار فبات كمدأ بعد أشهر قليلة .

وهكذا بدأت الدولة السلجوقية تلقى نهايتها على يد قوتين : قوة الأتراك الغز فى الشرق ، وقوة الخوارزمشاهيين فى الشمال .

ولم يهدأ الصراع بين الأتراك والإيرانيين من أتباع الإسماعيلية . فهؤلاء الإسماعيلية أو الحشاشون شرعوا ، بعد موت الخليفة النظامى المستنصر ، يعملون لحسابهم الخاص فى إيران بزعامة الحسن الصباح . وبعد أن اغتالوا

(١) نفس المصدر : ص ٢٥٧

نظام الملك تابعت بعد ذلك الاغتيالات فقتل كثير من أبرز الشخصيات في ذلك العصر . وقد عدد براون أسماء بعضهم . ولم يسكت أهل السنة على هذه الجرائم التي يرتكبها الشيعة فقاموا بثأرون لقتلهم ووقعت مجموعة من المذابح منها مذبحه نيشابور في سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م ومذبحه الباطنية التي أمر بها السلطان بركياروق في سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م ومذبحه مدينة آمد التي قتل فيها عدد من الباطنية بلغ سبعمائة سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ثم المذبحه الكبرى التي أمر بها السلطان سنجر سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م انتقاماً لقتل وزيره معين الملك . وكانت تهمة الباطنية إذا لحقت شخصاً عن الأشخاص مرراً كافياً لقتله . وسادت الفرضى المحتجعة الإيرانية في ذلك العهد . وعم الذعر بين الناس . وكثيراً ما كان يخرج الرجل من بيته فلا يضمن أن يعود إليه .

#### ٦ - الخوارزميون .

ويقال لهم أيضاً الخوارز مشاهيون وملوك خيوة (٤٧٠ - ٥٦٢٨ هـ / ١٠٧٧ - واسمه انوشكين . وهذا المملوك بدأ حياته ساقياً عند اساطان ماكشاه ثم استطاع أن يظفر بمنصب حاكم خوارزم (خيوة) . وخانه في هذا المنصب ابنه الذي لقب نفسه خوارز مشاه .

وكان أنسز أول من أظهر من هؤلاء المملوك الميل إلى الاستقلال (٥٢١ - ٥٥١ هـ / ١١٢٦ - ١١٥٦ م) . وكان أنسز مقبياً عند السلطان سنجر وكان له تأثير عليه فعينه حاكماً على خوارزم رغم أن وزراءه نصحوه ألا يفعل . وما أن وصل أنسز إلى خوارزم حتى قاد الثورة ضد مولاه سنجر الذي وجه الجيش لحربه وهزمه ، وعين مكانه في حكم خوارزم أحد أقاربه سليمان شاه دون أن يزوده بالعدد الكافي من الجنود والعتاد . وما كادت جيوش السلطان سنجر تعود حتى أخذ أنسز يجمع شمله ويضم قوته من جديد . وأراد أنسز أن يشغل سنجر بالقرائنين في الشرق فدعاهم ليلدوا فتوجههم نحو الغرب في بلاد ما وراء النهر . وفي الوادي المعروف

باسم (درغام) لقي سنجر أشنع هزائمه ففر إلى خراسان عن طريق ترمذ  
ومعه من بقي من فلول جيشه . وهذا أصبحت بلاد ما وراء النهر في قبضة  
القراختائين . ولأول مرة وجدنا قوماً من المسلمين وهم الخوارزمشاهيون  
يخالفون قوماً من أعداء دينهم الوثنيين وهم القراختائيون (١) . وفي نفس  
السنة انتهز أتسر فرصة هزيمة سنجر وبدأ يغير على إقليم خراسان . وأضاف  
كثيراً من البلاد إلى ملكه .

واستطاع ابنه علاء الدين محمد بعد حرب مع الفوريين في خراسان  
أن يخضع الجزء الأكبر من بلاد إيران حوالي سنة ١١٢٠ / ١١٢٠ م ،  
وأن يخضع بخارى وسمرقند ويغزو مقاطعة كورخان من ملوك القراختائية ،  
وأن يستولى على عاصمته أترار . وفي سنة ١١٢٤ / ١١٢٤ م غزا أفغانستان  
واستولى على غزنة وعزم بعد ذلك على أن يقضى على الخلافة العباسية ولكن  
ظهور المغول بقيادة جنكيزخان على حدود بلاده فل حده وقضى على آماله .  
وكان في ظهور المغول القضاء على دولة خوارزم .

#### الأتابكة :

وخضعت إيران أيضاً للأتابكة . وكان هؤلاء الأتابكة قد تقسموا  
فيما بينهم أراضي الدولة السلجوقية .

وهؤلاء الأتابكة كانوا من مماليك السلاجقة . وكان لكل واحد من  
سلاطين السلاجقة أتباعه من هؤلاء المماليك الذين كانوا يشغون الوظائف  
الرئيسية في الجيش والبلاط . وكان منهم مريو الأمراء (أتابك) .

ومن هؤلاء المماليك طوغتيكين Tughtigin الذي كان عبداً عند  
تنش السلجوقي Tutush الذي عينه وصياً على ورثته دقاق Dukak ؛  
ولما توفي تنش استولى عبده على كل السلطات في دمشق .

Skrine & Ross : Heart of Asia p. 139.

(١)

وكذلك كان عماد الدين زنكي مؤسس دولة أتابكة الموصل وحلب فإنه كان ابناً لأحد عبيد السلطان ملكشاه السلجوقي .

وكذلك كان أتابكة آذربيجان فإنهم كانوا سلالة أحد المماليك الخاصين للسلطان مسعود أحد سلاطين السلاجمة في العراق .

وفي فارس بدأت دولة الأتابكة ٥٥٤٣ / ١١٣٨ م ، وتنسب إلى سلغر أحد قواد البركمان في عهد السلاجمة . وكانت نهايتها سنة ٦٨٦ هـ على أيدي المغول وقد بدأت هذه الدولة بسنقر بن مودود بن ساغر ٥٤٣ - ٥٥٧ هـ وانتهت ببايش بن سعد بن أبي بكر ٦٦٢ - ٦٨٦ هـ .

وفي القرن الثاني عشر الميلادي كانت كل الإمبراطورية السلجوقية (باستثناء الأناضول) في يد دول الأتابكة الذين كونوا لأنفسهم إمارات مستقلة (١) .

وقد قضى المغول على دول الأتابكة كما قضوا على الدولة الخوارزمية .

#### ٣ - المغول : جنكيزخان :

المغول فرع من الشعب التركي . كانوا في أول أمرهم قبائل رحلًا تسعى وراء المراعى والأشبه في شمال صحراء جوبي . ويعيشون على أكل لحوم الماشية وشرب لبنها . ويذكر لين بول أن اسم المغول لم يكن مشهوراً حتى القرن العاشر (٢) ويرجع إلى «بيسوكا» المنضف في تخلص قبائل المغول من سيطرة الصين وتحقيق استقلالهم عنها . ولكن النجاح الأكبر تحقق على يد ابنه جنكيزخان الذي استطاع في عشرين سنة أن يكون إمبراطورية كبرى وعندما توفي «بيسوكا» في سنة ١١٧٥ م حل محله ابنه تموجين (لأنه لم يكن قد سمي بعد باسم جنكيزخان) ولم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره .

Lanc-Poole : Moh. Dynasties p. 159.

Lanc-Pole : Moh. Dynasties p. 202.

(١)

(٢)

ويروى لنا حبيب السير عن حياة جنكيزخان الأولى ما خلاصته أنه حين ولد كان في قبضته قدر من الدم المتجمد . وكان معنى هذا شجاعة ذلك المولود وقدرته على سفك الدماء .

واسم جنكيزخان الأصلي تموجين . وقد رأى تموجين ذات ليلة في نومه أن يديه طالتا ، وفي كل منهما سيف ، حتى بلغنا المشرق والمغرب . وعندما حكى الطفل لأمه هذه الرؤيا فسرتها له بأنه سيستولى على عالم المشرق وسيريق سيفه الدماء في المشرق والمغرب .

وفي سنة ١٢٠٢/١٢٠٥ م غير أحد كهنة المغول اسم تموجين وجعله جنكيزخان . ومعناها في لغة التوراتيين ملك الملوك (١) .

ومن المعروف إن جنكيزخان لم يكن تابعاً لأي دين أو ملة وكان يحترز عن التعصب ، وترجيح مذهب على مذهب . وكان يعظم ويكرم زهاد وعلماء كل طائفة دون تفریق .

ولا يكاد العقل يصدق ما فعله هؤلاء المغول بالبلاد التي فتحوها من ضروب الوحشية التي تفوق التصور لولا أن المصادر المختلفة أجمعت عليه . ومن هذه المصادر مثلاً ابن الأثير الذي يقول عن هؤلاء المغول في حوادث سنة ٦١٧ ما يأتي بعد الاختصار :

«لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة — يقصد غزو المغول للعالم الإسلامي — استعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدم اليها رجلاً وأؤخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين . ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمي لم تلدني وياليتني مت قبل هذا

---

(١) تهديم نام تو جنكيزخان تو من بعد خود را تموجين بخوان

همه كس ورا اينجين خواندند بدان نام تو آفرين خواندند

از آن رو كه معنى جنكيزخان بود شاهان بتورى زبان

ومناها (لقد سميتك جنكيزخان فأنت لاتنادى بعد ذلك باسم تموجين . ولهذا فالكل ينادونك بهذا الاسم الذي سماك به الله . وحلى هذا الوجه يكرن معنى جنكيزخان في لغة التوراتيين ملك الملوك)

وكنت نسياً منسياً .. « ثم يقول «وهؤلاء المغول لم يبقوا على أحد بل قتلوا  
النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة .. فإن قوماً  
خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغويه  
ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغزهما فبملاكتهما وبمهلون  
بأهلها ما نذكره ثم عبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها دكا وتخريباً  
وقتلاً ونهباً ثم يتجاوزونها إلى الري وهددان وبلد الجبل وما فيه من  
البلاد إلى حد العراق ثم يقصدون بلاد آذربيجان وأرانية ويخربونها  
ويقتلون أكثر العلماء ولما ينج إلا الشريد النادر في أقل من سنة . هذا ما لم  
بسمع بمثله . ثم لما فرغوا من آذربيجان وأرانية ساروا إلى دربند شروان  
فلكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم وعبروا عندها إلى بلاد اللابة  
والكز ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة فأوسعوهم قتلاً ونهباً وتخريباً .  
ثم قصدوا بلاد القبايق وهم من أكثر بلاد الترك عدداً فقتلوا كل من وقف  
لهم فهرب الباقون إلى الغياض ورعوس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى  
هؤلاء التتر عليها . فعلموا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار سيرهم  
لا غير . ومضت طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزته وأعمالها وما يجاورها  
من بلاد الهند وبلخستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد . هذا ما لم  
بطرق الأسماع مثله ، فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك  
الدنيا لم يملكها في هذه السرعة إنما ملكها في نحو عشر سنين ولم يقتل أحداً .  
إنما رضى من الناس بالطاعة . وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض  
وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة  
لم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقتها إلا وهو خائف يتوقعهم ويتربص  
وصولهم . ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم فإنهم معهم الأغنام  
والبقر والحيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير . وأما  
دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات  
لا تعرف الشعر .. إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج . وأما  
ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئاً فهم يأكلون

جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها ، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فاذا جاء الوالد لا يعرف أباه .

وهذا شاهد آخر يتحدث عن وحشية هؤلاء المغول وفظائعهم هو ياقوت الحموي (٥٧٥ - ٦٢٦ هـ / ١١٧٨ - ١٢٢٩ م) الذي كان معاصراً لإغارة المغول وكان صديقاً أيضاً لابن الأثير . وقد استطاع ياقوت أن ينجو بحياته بكل مشقة من شرهم . وفي الخطاب الذي كتبه ياقوت إلى القاضي الأكرم جمال الدين أبي الحسن علي الشيباني النقفلي وزير ملك حلب يتحدث عما رآه من الأهرال وما لقيه من المصاعب حتى استطاع أن ينجو من مرو ويصل إلى الموصل . وقد أورد ابن خلكان هذه الرسالة في ترجمته لياقوت (١) . يقول ياقوت في هذه الرسالة بعد مقدمات كان انقمام بمرو الشاهجهان المنسر عندهم بنفس السلطان ، فوجد بها (أى ياقوت) من كتب العلوم والآداب وصحائف أولى الأفهام والألباب ما شغله عن الأهل والوطن وأذله عن كل نخل صفي وسكن ، فظفر منها بضائه المنشودة وبغية نومه المنزودة ، فأقبل عليها إقبال النهم الخرص وقابلها بمقام لا يزعم عنها محيص ، فجعل يرتع في حدائقها ، ويستمتع بحسن خلقها وخلائقها ، ويمرح في طرفها . وينالذ بمحبوطها وتنفها . واعتقد المقام بذلك الجناب إلى أن يجاور التراب .. إلى أن حدث بخراسان ما حدث من الخراب والويل المبهر والقتاب ، وكانت لعمر الله بلاداً موقنة الأرجاء ، رائحة الأنحاء ، ذات رياض أريضة ، وأهوية صحيحة مريضة ، قد تغنت أطيافها فتمايلت طرباً أشجارها ، وبكت أنهارها فتضاحكت أزهارها ، وطاب روح نسيمها فصح مزاج إقليمها . ولعهدي بتلك الرياض الأنيقة ، والأشجار المهذلة الوريقة وقد سالت إليها أرواح الجنائب زقاق خمر السحائب فشقت مروجها مدام الطلل فنشأ على أزهارها حباب كالؤلؤ المنجل . فلما رويت من تلك الصهباء أشجاره ، ورنحها من النسيم خارها فتدانت ولا تداني الحيين وتعانقت ولا عناق العاشقين يلوح من خلالها شقائق قد شابه اشتقاق

(١) ابن خلكان : ج ٥ طبعي الدين

الهوى بالعليل فشابه شفقتي غادتين دننا للتقبيل .. الخ هذه التشبيهات  
 إلى أن يقول : وحلة أمرها أنها كانت أتمودج اللجنة بلا مين ، فيها ما تشبهى  
 الأنفس وتلذ الأعين . قد اشتملت عليها المكارم .. ومن العجب العجائب  
 أن سلطانهم المالك هان عليه ترك تلك الممالك وقال لنفسه اله وآلك ، وإلا  
 فأنت فى الهواك ، وأجفل إجمان الرال ، وطقق إذا رأى غير شىء ظنه  
 رجلا بلا رجال .. لكنه عز وجل لم يورثها قوماً آخرين نزيها لأولئك الأبرار  
 عن مقام المجرمين بل ابتلاهم فوجدهم شاكرين . وبلاهم فأثابهم صابرين  
 فالجتمهم بالشهداء الأبرار ، ورفعهم إلى درجات المصطفين الأخيار .. فجاس  
 خلال تلك الديار أهل الكفر والإلحاد ، وتحكم فى تلك الأستار أولو الزيغ  
 والعناد ، فأصبحت تلك القصور كالمسحو من السطور ، وأمست تلك  
 الأوطان مأوى للأصداء والأغربان ، يتجاوب فى نواحيها البوم ، ويتناوح  
 فى أراجيحها الريح السموم فيستوحش فيها الأنيس ، ويرثى لمصايبها إبليس ..  
 فإنا لله وإنا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر . وتهدم العمر . وتمت فى  
 العصد .. فحينئذ تهتقر المملوك (يعنى نفسه) على عقبه ناكصاً ، ومن الأوبة  
 إلى حيث تستقر فيه النمس بالأمن آيساً بقلب واجب ، ودمع ساكب ،  
 ولب عازب ، وحنم غائب ، فتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل بعد  
 مقاساة أخطار ، وابتلاء واصطبار ، وتمحيص الأوزار ، وإشراف غير  
 مرة على البوار والنيار لأنه مر بين سيوف مسلولة ، وعساكر مغلولة ،  
 ونظام عمود محلولة ، ودماء مسكوبة مطولة . وكان شعاره كلما علا  
 قتباً أو قطع سببها (لقد لقينا من .. نمرنا هذا نصباً) فالحمد لله الذى أقدرنا  
 على الحمد ، وأولانا نعمة تموت الحصر والعد . وحلة الأمر أنه لولا فسحة  
 فى الأجل لعر أن يقال سلام البائس أو وصل ، ولصقت عليه أهل الوداد  
 صنمة المغبون ، وألحق بألف ألف هالك بيلدى الكفار أو يزيدون ..»  
 إلى آخر الرسالة .

وكان هؤلاء المغرول يتعمدون استخدام هذه الأساليب الوحشية لإيقاع  
 الرعب فى قلوب أعدائهم . وكانوا يرون أن تخريب البلدان ، وإبادة

السكان أضمن لهم حتى لا ينقض عليهم أهلواها فيشغلوهم ويعطلوا زحفهم ويستزفوا قواهم في معارك جانبية .

ولم يكن الأسرى الذين يقعون في أيديهم أحسن حالا من القتلى فقد كانوا يستخدمونهم في مقاتلة مواطنيهم ويجعلونهم في المقدمة ، ولم يكونوا يورعون عن إلقاءهم في الخنادق ليتخذوا من أجسادهم فطرة يعبرون عليها . وعلى العموم لم تكن للحياة الآدمية أية قيمة عندهم . إلا أنهم كانوا يستثنون من هذا المصير من يجدونه من أهل البلاد المتروحة من أهل الحرف والصناعات لأنهم كانوا ينتفعون بهم .

ولا شك في أن هؤلاء المغول كانت الصرامة طابع حياتهم . وكان الجندي المغولي ممتاز بالنظام والطاعة العمياء للرؤساء . وإذ أخرج عن الأصول المرعية كان عقابه شديداً .

ولا تحصى الأمثلة التي وردت في المصادر التاريخية على وحشيتهم وغلظة أكبادهم . ومن أمثلة هذا ما فعلوه بأهل خوارزم فإنهم أعلموا سيوفهم في رقاب أهلها ، ولم ينج منهم إلا أصحاب الحرف والصناعات الذين نقلوهم إلى منغوليا كعادتهم . وفي مدينة مرو بلغ عدد القتلى رقماً قياسياً يقدره ابن الأثير ب ٧٠٠,٠٠٠ بينما يرفعه صاحب جهانكشا إلى ١,٣٠٠,٠٠٠ . وفي نيسابور قطع المغول رؤوس القتلى وجعلوا منها أهراماً عالية ، أحدها للرجال ، والثاني للنساء ، والثالث للأطفال . وفي مدينة باميان ثارت نائرة هؤلاء المتوحشين لمصرع واحد من أمراءهم أثناء القتال فخربوا المدينة تخريباً كاملاً وتركوها قاعاً صفصفاً . وظلت بهذا الشكل مهجورة خالية قرناً من الزمان . وعندما زار الرحالة المعروف ابن بطوطة مدينة بلخ في سنة ٧٢٧ هـ في عهد السلطان أبي سعيد وجدها خاوية على عروشها بعد أن خربها «تنكيز العين» . (١) وكذا كانت الحال في مدينة ترمذ ، فقد خرب المدينة القديمة تنكيز - كما يذكر ابن بطوطة - وكانت مبنية على شاطئ

(١) رحلة ابن بطوطة : ص ٣١٧ ط الأميرية ١٩٢٩

جيجون . وأما التي شاهدها ابن بطرطة فهي المدينة الحديثة وقد بنيت على بعد ميلين من النهر (١) وفي بخارى أمر بإشعال النار في بيوتها . وكان أغلبها من الخشب . فاحترقت المدينة كلها في يوم ولم يسلم من مبانيها سوى المسجد الجامع وبعض القصور المبنية بالطوب الأحمر . وقد روى أن أحد البخاريين ذهب إلى خراسان بعد هذا الحريق فسئل عن حال بخارى وكيف انتهى أمرها مع الغزاة التتارحين فقال «جاءوا وقلعوا وأحرقوا وقتلوا وحلوا» (٢) . ويعلق صاحب حبيب السير فيقول في الواقع لا يمكن أن توجد عبارة في التتارية أوجز من هذه ففيها بيان ما وقع في بخارى من جيش المغول . وفي مدينة أترار ساقوا جميع أهلها إلى الصحراء وأجهزوا عليهم بالسيف الحادة . ويذكر حبيب السير أن المغول قتلوا في قزوين بشيف الحقد ما يقرب من خمسين ألف رجل حتى ارتوت الأرض بالدماء ونبئت من دماء القتلى الزهور المشوكة القم الوردية الخد (٣) . وفي الري كان هناك تعصب مذهبي بين الأدهالي ، وعندما سمع الشافعية بخر وصول المغول أسرعوا لاستقبالهم وحرضوا التتارين المغوليين (جيه) و(سويدي) على قتل نصف المدينة الذين كانوا أحنافاً ، فأبادهم المغول بحد السيف . وبعد ذلك قالوا لأنفسهم أي خبز يرجي لنا من الذين يسعون في دم مواطنهم ؟ ثم قتلوا الشافعية أيضاً في عقب الخفية .

وكان من عادة هؤلاء المغول أن يسموا المولود باسم أول داخل في البيت عند ولادته . وقازان وقازغان هو التندر . قيل تسمى قازان بذلك الاسم لأنه لما ولد دخلت عليه جارية ومعها قدر (٤) .

وكان من عادة المغول حسب أحكام الياسا أو الياساق أن يجتمعوا مرة

(١) نفس المصدر : ص ٣١٦

(٢) خواندмир : حبيب السير ج ٣ ونص العبارة هناك «آمدند و كندند وسوختند وكشتند

و بردند» .

(٣) نفس المصدر والجزء .

(٤) خواندмир : حبيب السير ج ٣

كل سنة على هيئة مؤتمر عام يحضره الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة .  
وكانوا يحاسبون الملوك على سياستهم ومدى التزامهم بتنفيذ أحكام الياسا .

وكان الاستحمام عند هؤلاء المغول من الجرائم التي تصل عقوبتها  
إلى الإعدام ، وكذلك كان تنظيف الأيدي أو الملابس في المياه الجارية (١) .

وكانت طريقتهم في ذبح الحيوان صورة لوحشيتهم إذ كانوا يشقون  
بطنه ويخرجون مافي جوفه . وحرموا على المسلمين أن يذبحوا بطريقتهم (٢) .

وكان من عاداتهم عند وفاة ملوكهم أن يقتلوا مجموعة من الفتيات  
الحسنات ويقدموهن قرباناً لروح الملك .

كما كان من عاداتهم إذا مات ملك من ملوكهم أن يسدوا الطرق  
ويعنعوا الناس من التنقل حتى لا يروا جنازته . وغرضهم من ذلك أن يخفوا  
موته على الناس قبل أن يعلن رسمياً . ومن أوقعه سوء حظه في طريق الجنازة  
قبل إعلان الخبر رسمياً قتل . وبذكر براون نقلا عن دوسون أن أوكدای  
أمر بقتل أربعين فتاة عذراء قرباناً لروح جنكيزخان . وصرح الجند الذين  
رافقوا جثمان الامبراطور المغولي منكوزخان إلى مئواه الأخير في جبال الناي  
بأنهم قتلوا في طريقتهم مالا يقل عن ٢٠,٠٠٠ شخص (٣) .

وكان من عادات هؤلاء المغول أن يسرفوا في الشراب .

أما كيف حلت هذه اللعنة بإيران ففيما يأتي مجمله :

عندما تولى جنكيزخان الحكم كانت سنه لا تتجاوز الثالثة عشرة ولذلك  
بذل مجهوداً كبيراً ووقتاً طويلاً بلغ ثلاثين سنة في الكفاح ضد أعدائه  
من الأتراك المجاورين حتى استطاع أن يخضعهم ويثبت ملكه . وبعد انقضاء

(١) براون : ٤٤٠/٢ والترجمة العربية ٥٦١

(٢) نفس المصدر

(٣) براون : ٤٤٥/٢ والترجمة العربية ص ٥٦٧

هذه السنين الثلاثين كان قد بقى من عمره عشرون سنة قضاهما في الفتح والتوسع .

ففى سن الرابعة والأربعين بدأ بإخضاع الأويغور ، ولم تكده تنقضى على ذلك ثلاث سنوات حتى غزا الصين واستطاع أن يضم اليه بعض مقاطعاتها الشمالية مثل مملكة ليوتانج ومملكة تانخوت . وعندما فرغ من أمر الصين كان عليه أن يزيل من طريقه مملكة قراختاي التركية التى كان يحكمها الكورخانات . وسرعان ما سيطر عليها هى الأخرى (١) .

وبهذا الشكل أصبحت حدود دولة جنكيزخان متاخمة لحدود مملكة الخوارزميين . وكان طبعياً أن يحدث الاحتكاك بينهما فى يوم من الأيام ، ومن أسف أن ملك خوارزم السلطان محمد لسوء حظه وحظ العالم الاسلامى كله كان هو الذى أتاح الفرصة المناسبة لجنكيزخان حين قتل رسله ، وكان ذلك خطأً كبيراً منه . ولم يكن هذا هو كل خطئه فقد وقع بعد ذلك فى سلسلة أخطاء عددها النسوى فى كتابه . ونشير اليها فيما بعد .

وعندما بلغ جنكيزخان ما فعله محمد خوارزم مشاه برسله صمم على الانتقام وسار فى جيش كثيف «يزيد على القطرات والذرات فى العدد والحساب» (٢) . وقسم جنكيزخان قواته بين أبنائه ، ووكل إلى كل واحد منهم مهمة ؛ فأوكداى وجنتاى كان عليهما إخضاع أترار ، واتجه جورجى خان إلى جند بينما اتجه أثنان آخران من قواده للاستيلاء على فناكت وخجند واتجه جنكيزخان بنفسه مع ابنه تولى إلى بخارى فوصلها فى سنة ٧٥٦٦٦ / ١٢١٩ م .

أما أترار فقد سقطت بعد قتال عنيف وحصار دام خمسة أشهر ، ولقيت الحياة دورها فى هذا الفتح . ومع ذلك فان حاكمها من قبل السلطان

(١) لين بول : ص ٢٠٣

(٢) خوراندмир : حبيب السيد مجلد ٣

الحوارزى ضرب مثلاً راثعاً من أمثلة البطولة إذ ظل يقاوم في قلعتها مع من ثبت معه . وكان رجاله يتساقطون واحداً بعد الآخر دون أن يثنيه ذلك عن مواصلة القتال . وفي النهاية قبض عليه المغول وحملوه إلى جنكيزخان حيث تمّتل .

أما بخارى فقد حاصرها جنكيزخان ثلاثة أيام ثم دخلها بعد أن كان الجند الحوارزميون قد تسللوا منها تحت جنح الظلام عائدين إلى خراسان ولما وجد الأهالي أن المدينة قد دخلت من الجند المدافعين أرسلوا في طلب الصلح فأجابهم جنكيزخان إلى طلبهم ، ودخل المدينة سنة ٨٦١٦ / ١٢٢٠ م . أما الجند المسلمون الذين تحصنوا في قلعتها فقد ظلوا يقامون حتى قتلوا عن آخرهم . واندفع المغول يهبون المدينة ، وانتهكوا حرمة المسجد ، وجعلوه اصطبلًا لحيلهم . ولما عرف جنكيزخان أن عدد أمن أتباع خوارزمشاه قد اختلطوا بالأهالي واندسوا بينهم غضب غضباً شديداً وأمر أن يشعلوا النار في بيوت البخاريين . وكان أكثرها من خشب فاحترقت المدينة عن آخرها في يوم واحد . ولم يبق بها عمارة سالمة سوى المسجد الجامع وبعض القصور المبنية بالطوب الأحمر .

أما مدينة سمرقند فقد تركها السلطان محمد خوارزمشاه لحاميتها التي تدافع عنها وابتعد هو خوفاً من المغول . وبعد حصار المغول للمدينة خمسة أيام اختلفت آراء سكان سمرقند فال بعض للصلح وأصر البعض على الولاء للسلطان . وفي الصباح خرج قاضي سمرقند وشيخ إسلامها مع فوج من أشراف المدينة وأسرعوا يطلبون الأمان من جنكيزخان الذي أمرهم بالعودة وفتح أبواب المدينة : وتدقق عسكر المغول عليها ، وفصلوا القاضي وشيخ الإسلام وخمسن ألفاً من أتباعهما عن سائر الناس وساقوا الباقين إلى الصحراء حيث أهلكوهم : وقتل المغول ما يقرب من ثلاثين أميراً من أمراء الحوارزميين مع كامل جندهم وفصلوا عن سائر الناس ثلاثين ألفاً من أرباب الحرف قسمهم جنكيزخان على أولاده وأقربائه (١) .

(١) خواندمير : حبيب السير مجلد ٣

ويبين النسوي أوجه الخطأ التي وقع فيها السلطان في قتاله مع المغول فيقول أنه أمر ببناء سور على مدينة إسنرفند يبلغ امتداده اثني عشر فرسخاً وزوده بالمقاتلة للدفاع عنه ، وجمع من الناس خراج سنة مقدماً ليتمكن على بناء ذلك السور ولكن السور لم يتم بناؤه لأن التار أعجلوه عن ذلك (١) . ومن هذه الأخطاء أيضاً أن السلطان عندما سمع بقرب جنكيزخان فرق عساكره بمدن ما وراء النهر وبلاد الأتراك . ولم يترك بلداً من البلاد خالياً من جيش كبير . ويذكر النسوي أن هذا الإجراء كان خطأ من السلطان لأنه شتت شمل جنده وفرق كتائبه . ولو أنه لقي التار بمجموعة مكملة لاخطئهم خطأً وأنسبهم عن الأرض نسفاً (٢) .

ومن جملة أخطائه - غير ما ذكره النسوي - أنه عندما حارب المغول كانت مملكته لا تزال في دور التأسيس ولم يكن حكمه قد استقر بعد (٣) . وكان واجباً عليه - وهذا موقفه - أن يهادن المغول ليتفرغ لمملكته أولاً بدلاً من إثارتهم ودفعهم لحربه ومقاتلته . يضاف إلى هذا أيضاً أنه تحدى الخلافة فهبج الرأي العام ضده وشغل نفسه بأكثر من جهة في وقت واحد .

وأما نيشابور فقد قصدتها المغول بعد أن عبروا النهر . ولم يكن محمد خوارزمشاه يعتمد أنهم سيعبرون نهر جيحون فلما بلغه ذلك غرمنها إلى مازندران فتبعه المغول إليها بغية اللحاق به والقبض عليه فتحول عنها إلى الري وهم يجدون وراعه ثم إلى همدان ولكنهم كانوا لا ينون عن الجلاء في طلبه فعاد مرة أخرى إلى مازندران . ومن هناك أبحر في بحر طبرستان إلى قاعة في وسطه . وانقطعت أخبار محمد خوارزمشاه في تلك الجزيرة التي أقام بها في بحر طبرستان حتى مات سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢١ م .

\*\*\*

وبالانتصار دمر هؤلاء المغول ما فتحوه من البلاد ، وأبادوا أكثر

(١) محمد بن أحمد النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي نشر هوداس ص ٣٦

(٢) نفس المصدر ص ٣٧ :

(٣) عباس الغزالي : تاريخ العراق بين احتلاين ١٠٦/١

أهلها . ففى الرى قضوا على سكانها كما ذكرنا فى سابق . وفعلوا نفس الشئ فى قم . أما كرز رود فقد أحرقوها . وأما خرم آباد فقد جعلوها مأتماً . وقتل «سويداى» فى قزوین ما يقرب من خمسين ألفاً (١) . وفى نيسابور بنوا أهرامات من حجاجم القتلى . ولم يغادروا باميان الا وهى خرائب وأطلال . أما بلخ فقد خوت على عروشها وتجردت من كل معالم الحياة . وقد رآها ابن بطرطة فى رحلته وهى على تلك الحال (٢) . وكانوا قد خربوا مدينة ترمذ التى تقع على شاطيء جيحون فبنيت بعد ذلك من جديد . ولكن ترمذ الجديدة كانت تبعد عن شاطيء النهر ميلين (٣) .

وكانت مدة حكم محمد خوارز مشاه إحدى وعشرين سنة وشهوراً امتدت فيها مملكته من العراق غرباً إلى تركستان شرقاً وضمت بلاد غزنة ، وبعض الهند ، وسجستان ، وكرمان ، وطبرستان ، وجرجان ، وبلاد الجبال ، وخراسان وبعض بلاد إيران .

وترك محمد خوارز مشاه ملكه لابنه البطل جلال الدين ، كما ترك أمه وزوجاته وأولاده أسرى فى يد المغول .

\*\*\*

ولا شك فى أن خليفة محمد خوارز مشاه كان بطلاً إسلامياً جديراً بالتقدير . ولم يبأس جلال الدين خوارز مشاه بعد سقوط مملكته فى أيدي المغول . فاتجه أولاً إلى بلاد الهند حيث تبعوه إلى هناك وأحاطوه من كل جانب . وقد قاومهم مقاومة عنيفة . وعندما رأى أن لافائدة ترجى من المقاومة انسحب عائداً إلى إيران محاولاً استرجاع ملكه ، واتجه إلى مقاطعة فارس حيث تزوج ابنه الأتابك سعد . ولكنه بعد أن أكد سيادته على بلاد إيران اتجه لقتال الخليفة ومنازعته بدل أن ينصرف إلى جمع قواه للملاقاة عدوه الأكبر . المغول . وشغل جلال الدين بالإضافة إلى ذلك بحرب أخيه

(١) حبيب السير :

(٢) ابن بطرطة : ص ٣١٧

(٣) نفس المصدر : ص ٣١٦

«غياث الدين» الذي خانته كما حارب أيضاً حاكم كرمان «براق الحاجب» ،  
 وحارب كذلك طائفة الحشاشين . وهكذا وجدنا جلال الدين محارب  
 في وقت واحد في مجموعة من الجهات وكان موفقاً في أول الأمر إذ استولى  
 في سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م على كرمان وأصفهان . والوى كما تمكن في  
 سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م من هزيمة جيش الخليفة وتبعه حتى بغداد واستولى  
 على تبريز . وفي سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م أسرع إلى الجنوب الشرق  
 من إيران حيث أدب حاكم كرمان براق الحاجب الذي خانته بالتحالف  
 ضده مع المغول . وفي سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م هزم الحشاشين ثم حقق  
 بعد ذلك نصراً كبيراً على المغول في دامغان . ولكن هذه الانتصارات  
 لم تغن عنه شيئاً حين هاجمه المغول سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م . ومن ذلك الوقت  
 بدأ نجمه في الأفول وأخذ تراجع أمامهم . ثم طفق بعد ذلك يهيم على وجهه  
 متخفياً من قرية إلى قرية حتى حان حينه في قرية كردية في الجبال سنة  
 ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م .

ولو كان جلال الدين يحسن الإدارة كما يحسن الحرب لاستطاع  
 أن يتغلب على المغول الذين كانوا وقتذاك متعبين بعد أن قطعوا آلاف  
 الأميال وهم يجاربون بعيداً عن أوطانهم (١) .

ويبدو مما ذكره النسوي في سيرة جلال الدين أنه كان محبوباً من رعيته  
 لأنهم لم يصدقوا أنه مات . وكانوا يعتقدون أنه حي يستعد في مخبئه للظهور  
 من جديد والانقضاض على المغول ويقول النسوي إنه ما نزل ببلد من  
 البلاد إلا والناس يرجفون بأن السلطان باق ، وأنه جمع واحتشد واستمد  
 واستعد . أخابير زور ، أماني غرور يقترها الأهواء ، ونخلقها الود والولاء .  
 إلى أن عدت إلى ميفارقين وتيقنت هلاكه » (٢) .

#### ٨ - المغول : الایلخانيون :

بعد أن مات جنكيزخان في ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م انتخب بعده ابنه

Sykes ; A History of Persia p. 60. Oxford. 1922.

(١)

(٢) النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي ص. ٢٤٥ نشر هوداس. ١٨٩١

أوكداى . وقد تم انتخابه فى نفس الوقت الذى مات فيه جلال الدين خوارزمشاه وانتهى حكم ملوك خوارزم . ثم خلفه فى الملك كيوك ، منكور .

وفى عهد منكور هذا جرد المغول على ايران حملة أخرى بقيادة هولاكو خان أخى منكور . ويعتبر هولاكو مؤسس أسرة الايلخانيين فى ايران التى حكمت قرابة قرن (٦٥٤ - ٧٥٠ هـ / ١٢٥٦ - ١٣٤٩ م) . ولكنهم وإن كانوا فى أول أمرهم غزاة فاتحين وثنيين الا أنهم أسلموا بعد فترة من الزمن ، واستطاعوا أن يمتزجوا بالشعب الايراني ، ويكتسبوا ثقته . وكان هولاكو ومن تبعه من المغول يتولون حكم ايران بصفتهم نواباً عن الخان الأكبر ولكنهم كانوا يتصرفون فى حرية مطلقة من الناحية الفعلية .

وفى هذه الحملة التى قادها هولاكو اكتسح خراسان ووجه همه للقضاء على الاسماعيلية . ويفصل جامع التواريخ وقائع هولاكو مع هؤلاء الاسماعيليين . ففى يوم الأحد غرة ذى القعدة سنة ٦٥٤ استطاع بمعونة نصير الدين الطوسي أن يغرى خورشاه آخر الاسماعيليين بترك قلعته التى كان يتحصن بها والتى ظلت حصن أسرته قرنين من الزمان وأن يعلن خضوعه لجنكيزخان (١) . وأرسل خورشاه الى جميع أتباعه يدعوهم الى تسليم ما بأيديهم من القلاع للمغول . وبناء على هذا تسلم هولاكو جميع الحصون والقلاع فى قهستان وروديبار وقومس بما فيها من ذخائر ومعدات وقد بلغ عدد هذه القلاع نحو مائة (٢) . وفى يوم الاثنين ٢٦ من ذى القعدة استولى هولاكو على قلعة الموت بعد أن دعا ركن الدين خورشاه المعتصمين بها للتسليم (٣) .

وكانت لا تزال هناك قلاع كثيرة فى أيدي هؤلاء الملاحدة ، ورأى هولاكو أن يبالغ فى إكرام خورشاه حتى ييسر له

(١) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ المجلد الثانى - الجزء الأول ترجمة نشأت وهنداوى والصيد ص ٢٥٤ نشر وزارة الثقافة ١٩٦٠

(٢) رشيد الدين فضل الله جامع التواريخ مجلد ٢ ج ١ ص ٢٥٥ الترجمة العربية

(٣) نفس المصدر : جامع التواريخ ص ٢٥٦

سبيل الاستيلاء على تلك القلاع دون حاجة إلى القتال والتضحية بالرجال .  
 ففي يوم الخميس العاشر من المحرم سنة ٦٥٥ هـ أنعم عليه هولاءكو انعامات  
 كثيرة وزوجه فتاة مغولية (١) . وأرسل خور شاه فعلا بعض خاصته  
 مع رسل هولاءكو إلى تلك القلاع ليحث أهلها على التسليم للمغول . وعندما  
 فرغ خورشاه من تسليم قلاع الاسماعيلية أرسله إلى الخان الأكبر الذي قتله  
 وأعمل السيف في أقاربه وأتباعه ولم يسلم منهم حتى الأبطال . وهكذا قضى  
 هولاءكو على هؤلاء الملاحدة الذين ظلوا يفسدون في البلاد سبعا وسبعين  
 ومائة سنة (٢) .

وفي التاسع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٦٢ هـ توفي هولاءكو خان ودفن  
 في قلعة تلا من نواحي مراغة بالغغا من العمر خمسين سنة .

وكان هولاءكو على مذهب البوذية . بنى في خوى داراً للأصنام .  
 أما امرأته «طوقوزخان» فكانت تدين بالنصرانية . وبسبب هذه الزوجة  
 النصرانية كانت علاقته طيبة بالعالم المسيحي . ويقال إنه كانت هناك اتفاقات  
 بينه وبين حكومات أوروبا المسيحية للقضاء على الاسلام (٣) .

ويعتبر أحمد تكرودارخان أول من أعلن إسلامه من المغول الذين حكموا  
 ايران وإن كان قد أخفى مسيحيته أما غازان فقد كان لإسلامه صدى كبير من  
 المغول الذين دخلوا تبعاً له في هذا الدين ومن عهد غازان ثبت الإسلام في  
 قلوب الایلخانيين ولم تعد محاولات المسيحية تجدى في كسبهم إليها . ونشير  
 فيما بعد إلى موقف المغول من الاسلام .

وبدأ الضعف يلب في هذه الدولة في عهد أنى سعيد (٧١٦ - ٧٣٦ هـ /  
 ١٣١٦ - ١٣٣٥ م) . وكانت أسباب الضعف هي تنسها الأسباب التي  
 أودت بالمماليك السابقة كتنافس الأمراء والقواد والوزراء . ومن صور

(١) نفس المصدر : جامع التواريخ ص ٢٥٧

(٢) نفس المصدر : جامع التواريخ ص ٢٥٨

(٣) عباس الفزاري : تاريخ العراق بين احتلالين ٢٥٦/١

هذه المنازعات ما كان بين أسرة الأمير جويان أحد القواد المقربين إلى غازان وأولاده وبين أسرة الأمير حسين الجلايري . وقد ظل النزاع بين الأسرتين والتنازع بين أمرأهما فترة من الزمن حتى استطاع الجلايريون في نهاية الأمر أن يسيطروا ويصبحوا هم القوة الرئيسية في إيران بعد انقضاء حكم الابلخانيين .

أما الوزراء فكان كل منهم يسعى للإيقاع بصاحبه والخلاص منه . ودخل بينهم اليهود فلعبوا دوراً خطيراً في زيادة الوقيعة والفساد وتدمير الفتن والمؤامرات . وكانت زوجة سعد الدين أحد الوزراء في عهد الجلائيو يهودية فلما قتل زوجها استعانت بهؤلاء اليهود للانتقام من رشيد الدين الذي كان هو الآخر يستعين بهم للقضاء على خصومه (١) .

والحقيقة أن شأن اليهود كان قد بدأ يرتفع منذ أيام أرغون خان . وكان وزيره في خلال الجزء الأخير من حكمه يهودياً هو سعد الدولة الذي كان أصلاً من أهالي أهر ثم عاش في بغداد فترة اشتغل فيها بالطب ثم انتظم بعد ذلك في سلك الأطباء اليهود في عهد اورغون (٢) . وينسب إلى هذا الوزير اليهودي أنه دبر كثيراً من الخطة للقضاء على الإسلام . وقد استطاع أن يكسب ثقة مولاه حتى عهد إليه بشئون البلاد المالية . وبفضل نفوذه وسيطرته استطاع زملاؤه من اليهود أن يتسللوا إلى كثير من مناصب الدولة حتى قال بعض الشعراء :

يهود هذا الزمان قد بلغوا مرتبة لا يتألفها ممالك  
المالك فيهم والمسال عندهم ومنهم المستشار والمالك

... الخ (٣) . وكلما ازداد نفوذ سعد الدولة وسيطرته على شئون المملكة ازدادت جرأته وانكشفت عداوته ضد الإسلام حتى إنه عرض

(١) المصدر السابق : ٤٤٣/١ :

(٢) خواندمير : دستور الوزراء ص ٢٩٦ طهران

(٣) براون : ٣٢/٢

على اورغون اقضاء جميع المسلمين من جميع المناصب الرئيسية في الدولة بل والقضاء على الإسلام نفسه . وقد أعد خطة لتجريد حملة إلى مكة وتحويل الكعبة إلى بيت للأصنام . ودبر خطة للقضاء على كبار الشخصيات الإسلامية في البلاد فأرسل نجيب الدين الكحال اليهودي إلى خراسان ومعه قائمة سوداء بأسماء حوالي مائتين من كبار المسلمين هناك ليتولى القضاء عليهم . وأرسل قائمة أخرى إلى شيراز تضم أسماء سبع عشرة شخصية إسلامية بارزة من شخصيات شيراز للتخلص منهم . ومع أن أرغون عندما تولى الملك كان يكره إزاحة الدماء إلا أن هذا الوزير سعد الدولة حجب إليه إزاحة الدماء ، وقتل الأبرياء لأقل شبهة وأدنى هفوة . ولكن ما إن أوشكت أهداف سعد الدين على بلوغ القمة حتى وقع اورغون مريضاً في تبريز . وعندما تبين أن شفائه ميئوس منه لم ينبج سعد الدولة من يد أعدائه فأعدم قبل أيام من وفاة ارغون في ٩ مارس ١٢٩١ . وكان تمتل سعد الدولة فرصة للتخلص من اليهود حتى ذبح كثير منهم . وفي بغداد وحدها قتل من زعماء اليهود ما يزيد على مائة . ويعلن الشاعر زين الدين علي بن سعيد فرحته بهذه المناسبة في قوله : (١)

محمد من دار باسمه التلك  
هذى اليهود انقروا قد هلكوا  
وقارن النحاس سعد دولتهم  
وافترضوا في البلاد وانتهكوا  
وشنت الله شمل ملكهم  
وبالحسام الصقيل قد سبكوا  
... الخ هذا الشعر

٩ - المغول : التيموريون :

٧٧١ - ٩٠٦ هـ / ١٣٦٩ - ١٥٠٠ م

ولد تيمور في قرية خواجه ايلغار من أعمال كاش . وروى أنه لما ولد

(١) براون : ٣٤/٣ بالشعر منقول عن تاريخ وصاف

كانت كفاه مملوءتين بالدم . ولما رجعوا إلى أهل العلم اختلفوا في تفسير هذه الظاهرة ولكنهم اتفقوا على أنه سيصبح جباراً عتياً (١) . وقد ذكرت المصادر قصة أخرى شبيهة بهذه عند مولد جنكيزخان . وقد ذكرنا قصة جنكيز فيما سبق نقلاً عن حبيب السير (٢) . وواضح أن هذه القصص إنما كانت توضع للعزاء بعد ما يرتفع شأنهم لتكون كالبشير بعظمتهم .

- وكان مولد تيمور في ٢٨ شعبان سنة ٧٣٦ هـ / ١١ من ابريل سنة ١٣٣٦ م . وتختلف المصادر في أصله ونسبه . فبعضها ينسبه إلى ملوك المغول القدماء (٣) . وينسبه بعضها إلى قبيلة برلاس التركية (٤) . أما لين بول فيصل نسبه إلى جنكيزخان (٥) . ولكن ابن عريشاه يتردد في حتمية أصله ونسبه بين أكثر من رأى ، فبينما يقول ان أباه كان اسكافياً فقيراً جلدأ ، وأنه في شبابه حاول أن يسرق إحدى الأغنام فضر به الراعي بسهم أصابه في كتفه ثم ثنى عليه بسهم آخر في فخذه فأصابها هي الأخرى ، وأصبح بذلك مصاباً في يمينيه الكتف والتخذ (٦) تراه في موضع آخر يقول إن الأصح أن أباه ترغاي أحد أركان دولة السلطان وأنه يتصل في نسبه بجنكيزخان (٧) . وترغاي هذا كان أميراً من قبيلة برلاس تولى حكم مقاطعة كش وملحقاتها (٨) . وواضح من هذا الاختلاف ، ومن تردد ابن عريشاه نفسه وترجيحه اتصال نسب تيمور بجنكيزخان عراقه أصله .

ويذكر ابن عريشاه في نشأة تيمور أن الراعي بعد أن أصابه بالسهم

(١) ابن عريشاه : عجائب المقثور : ص ٦ ط وادى النيل بالقاهرة

(٢) راجع أول ص ٥١ من هذا البحث

(٣) عباس الغزالي : تاريخ العراق فيما بين احتلالين ٢٦٢/٢

(٤) Skrine & Ross : Heart of Asia p. 168

Sykes : A History of Persia p. 65

(٥) Lane-Poole : Mohamedan Dynasties p. 265

(٦) عجائب المقثور . ص ٦

(٧) نفس المصدر : ص ٨

(٨) Skrine & Ross : p. 168

حمله إلى والي هراة الأمير حسين الذي أمر بتعذيبه وقتله . ولكن ابنة غياث الدين شنع فيه واستودبه من أبيه . ولم يكن الأمير حسين مقتنعاً بوجهة نظر ولده غياث الدين في العفو عنه ، ولكنه مع ذلك قبل شفاعته وعفا عنه . وأخذ ابن السلطان يقوم بعلاجه، ورعايته حتى شفى واشتغل بعد ذلك بخدمة ابن السلطان وبذل في هذه الخدمة غاية الجهد حتى ارتفعت مكانته عنده . وقد وجهه السلطان إلى زائبه في سجستان ، وكان قد عصى ، فقبض عليه تيمور وأخضع البلاد فازداد بهذا قدره عند السلطان . وقيل إنه ظل يخدم ابن السلطان حتى إذا توفي أبوه وانتقل الملك إليه ثار عليه (١) واستولى على هراة . وكان جزاء السلطان منه أنه حبسه حتى مات في محبسه من الجوع والظما .

#### غزواته لإيران :

غزا تيمور إيران ثلاث مرات : كانت غزواته الأولى سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م حينما أخضع خراسان وسجستان ومازندران .

وكانت غزوته الثانية في سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ - ١٣٨٥ م عندما غزا آذربيجان ، عراق العجم - جورجيا . وانتهت هذه الغزوة بخضوع شيراز زمينخة أصهبهان التي قتل فيها ٧٠,٠٠٠ .

وكانت غزوته الثالثة والأخيرة في ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢ م عندما أخضع فارس مرة أخرى بعد القضاء على الأسرة المظفرية والسربدارية في سبزوار ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م والكركت في هراة. ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م .

وكانت إيران بعد انقضاء دولة الإيلخانيين مقسمة بين أربع دويلات ؛ المظفريون الذين كانوا يحكمون في فارس والعراق العجمي وكرمان ، والجلالرية في بغداد وآذربيجان ، والسربداريون في سبزوار ، والكركت في هراة وكلاهما في الشمال الشرقي .

(١) عجائب المنثور : ص ١٠٠٩

وقد بدأ تيمور يغزو إيران في ربيع ١٣٨١ م بينما كان عمره ٤٥ سنة وكان اهتمامه في هذه الغزوة موجهاً إلى خراسان . وفيها سلمت له سرخس ثم استولى على بوشبخ . وبعد ذلك سقطت هراة وسلم غياث الدين ببر على الحاكم التركي . وبعد ذلك جاء دور طوس واسفرايين التي سواها بالأرض وقتل أكثر أهلها .

وفي ربيع السنة التالية ١٣٨٢ م واصل غزواته في بلاد إيران .

وفي سنة ١٣٨٣ م قام بغزوة ثالثة ضد سجستان وما زندران . وفي حوالي نهاية اكتوبر استولى على سيزوار وحطم قلعتها وأسر ما يقرب من ألفين من أهلها . وبعد أن تلقى خضوع فراه استولى على زره حيث ذبح معظم حاميتها وشيد من هاجمهم أهراماً . وفي ديسمبر سقطت سجستان ولم يترك فيها شيئاً دون أن يسليه . وكان أهلها قد خرجوا اليه يطلبون الصلح فوعدهم بالصفح إذا سلموا كل ما عندهم من الأسلحة ففعلوا . ولما تأكد أن المدينة قد غدت من السلاح فارغة وضع السيف في أهلها ثم خرب المدينة وجعلها خرائب وأطلالا . وقد أظهر الأهالي شجاعة فائقة في الدفاع عن مدينتهم رغم الحسائر الفادحة التي تكبدوها ولم يسلموا من الذبح في نهاية الأمر . ويذكر سايكس أنه عندما زار سجستان لم يجد بها أكثر من قرية في كل المقاطعة التي كانت في يوم من الأيام مشهورة بثروتها عامرة بمبانيها حالية يعلمها (١) . وهذا غريب مع امتداد الفترة الزمنية بين الحادثتين . وفي السنة التالية لغزو سجستان اتجه إلى استراباد . وعند ذلك أخضع مقاطعة مازندران واستولى على الري وأخضع الولايات الواقعة على بحر خزر وشمال إيران حتى سلطانية في سنة ١٣٨٥ م . وبعد ذلك بسنتين احتل آذربيجان وسيطر على جورجيا . وكانت أصفهان غايته بعد ذلك فحاصر المدينة وخرج اليه أهلها وتصلحوا معه على أموال يدفعونها اليه . وتفرق رسله ومحصلوه ليجمعوا تلك الأموال من الأهالي فكانوا يعيشون في المدينة فساداً

(١) سايكس : ص ٦٧

ويعبثون حتى إذا ضاق أهل أصفهان بهذه الحال هجموا على رجال تيمور وقتلوا منهم نحو سنة آلاف . ولما بلغ تيمور ما فعله الأصفهانيون برجاله توجه اليهم على الفور في شدة الغيظ وأمر بالقضاء على المدينة قضاء تاماً فلم يبق فيها حياة ، ولا عمارة ، ولا زرعاً ، حتى الأطفال لم يرحمهم وجعلهم لسناك الخيل (١) . وبلغ عدد القتلى في أصفهان بعد تلك المذبحة ٧٠,٠٠٠ كانوا يجمعون جاجهم ويجمعون منها أهراماً ومآذن . وكان هذا في يوم الاثنين ١٨ من نوفمبر سنة ١٣٨٧ م .

ثم واصل تيمور بعد ذلك سيره إلى شيراز التي أذعن له في الشهر التالي (ديسمبر ١٣٨٧) . ويزعم دولتشاه أن اللقاء تم في هذه الغزوة بين تيمور وحافظ الشاعر الشيرازي المشهور .

وبعد ستة أشهر اتجه الفاتح المغولي إلى جنوب بلاد الفرس حيث قابله شاه منصور المظتري في عدد من فرسانه يبلغ ٤٠٠٠ فارساً . وكان مصيره الهزيمة والقتل في النهاية .

وعندما غزا تيمور الهند كان قد بلغ سن السبعين . ومع ذلك فقد فقد غزا بعد ذلك آسيا الصغرى واستولى على حلب ودمشق ولم يحاول غزو مصر .

ومات تيمور لنك بعد ذلك بمدة وجيزة عندما قاد حملة ضد امبراطور الصين ودفن في شمرقند . وكانت وفاته سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م . وله من العمر تسع وسبعون سنة .

وقد امتدت امبراطوريته من دلهي إلى دمشق . ودين بحر آرال إلى الخليج الفارسي . وضمت امبراطوريته أغلب أجزاء ايران وأفغانستان بالإضافة إلى المقاطعات الواقعة فيما وراء النهر .

(١) عجائب المتطور : ص ٣٧

وقد أورد ابن عربشاه معلومات قيمة تنسر لنا أسباب هذه الانتصارات العسكرية التي كان يحرزها تيمور ، فانه لم يكن يتصد بدأً من البلاد الا بعد أن يكون عيونه فيها قد أمهوا اليه أخبارها وأحوال أهلها خصوصاً الرؤساء والأمراء والكبراء . فكان لهذا إذا حل ببلد واجتمع بأهلها سأل عن فلان وفلان ، وعمما تم في النزاع بين فلان وفلان فيهمت الحاضرون من ذلك الرجل الذي يعرف عنهم كل شيء (١) .

وكانت له في الحروب ووضع الخطط أساليب تدل على الدهاء والمكر ومن عادته قبل كل حرب أن يجمع رجاله ويعرض عليهم الأمر ويتلقى فيه مشورتهم حتى إذا انتهت الآراء وانفض المجلس عاد ودعا خاصته ومقربيه إلى مجلس سرى آخر . وأعادوا طرح الموضوع من جديد . وناقشوا وتباحثوا حتى يخرجوا فيه برأى قد يخالف الرأى الأول . وهذا الرأى الأخير يبقى سراً فلا يعرفه أحد من حضروا المؤتمر الأول . وبذلك يضمن لخطئه السرية الكاملة .

ثم كان إذا استقر رأيه على جهة بقصدها أعلن أنه يقصد جهة غيرها ليحول الأنظار عن مقصده الحقيقي ويضلل العيون والجواسيس عن وجهته التي يتجه إليها فعلاً . ثم لا يلبث بعد ذلك حتى يفجأ عدوه من حيث أمن واطمأن .

وكان في بعض الأحيان يتظاهر بالضعف والراجع ليستدرج عدوه إلى المكان الذي يريد أن يحاصره فيه (٢) .

وإلى جانب هذه المهارة في القتال وسعة الاطلاع بأحوال البلاد وأهلها كان عسكره أيضاً من نوع خاص أوتي القدرة الفائقة على تحمل المشاق والاكتفاء بالقليل والصبر على المكاره ومعرفة البلاد وما فيها من خيرات

(١) عجائب المنثور : ص ٢٢١

(٢) نفسه ص ٢٢٢

وكنوز . ولا بأس هنا في أن نقبس من كلام ابن عرب شاه حين يتحدث عن براعة عسكري تيمور فيقول : (ربما يمرون بقراء ، ويميزون بمهمة صحراء ، فيقف بعضهم ثم تراه ينظر إلى أرض ذلك المكان و تراه ثم يقول ليس هذا الثرى من هذا الثرى ثم ينزل عن دابته ، ويأخذ من ذلك التراب ويشمه ، ثم يلتفت إلى جهاته الأربع ، فيقصد منها جانباً ويومه ، ثم لا يزال يسير بمن معه من الأعوان حتى يصلوا إلى مكان فيحفرون ويخرجون كمين الدفائن وما في ذلك المدائن من المغلات والخزائن . وكذلك إذا وصلوا إلى عمائر . أو مروا على مقابر يتوجهون إلى الخبء وكأنتهم وضعوه بأيديهم ... وربما يجيئون إلى مقام مر على ساكنه فيه أيام . ومضى عليه فيه شهر وأعوام ، وفيه شيء عظمور لم يكن لصاحبه وساكنه به شعور ، فبجرد دخوله إليه ينتع ذلك عليهم . ويطلعون عليه . وحين يطالع ساكنه على ذلك يأكل ندانة وحسرة يديه ... وكانوا يحملون البقر ويركبونها ، ويسرجون الحمار ويلجؤونها .. ويطعمون الجمل لحم الكلب والحمل ، ويعاضون عن شعر الدرس بفتح الأرز والدخن والزبيب والعدس وربما أعوزهم ذلك في السفر فأضعموا دوابهم لحاء الشجر» (١) .

وكان عكره يضم خليطاً من أهل النمل اختانة ، فنيهم عبدة الأصنام من الترك ، وفيهم عبدة النار من الأعاجير . وفيهم الكهنة والسحرة (٢) .

ولم تكن هذه الاختلافات في الملل والعقائد تؤثر شيئاً في قدرة هذا الجيش على القتال . ذلك لأن النظام العسكري كان يفرض على هؤلاء العسكريين - فضلاً عما جابوا عليه و اكتسبوه من الصفات - أن يكونوا جنوداً ممتازين ومحاربين أشداء . وكان المغولي إذا دعى للجندي والقتال لم يستطع التأخر لأنه يعلم أن عاقبة التأخر في تأدية هذا الواجب كانت الصلابة أو الذبح .

(١) عجائب المقثور : ص ٢٣٤

(٢) نسخة : ص ٢٣٧

وكان الجندي المغولي مستعداً دائماً للقتال مسرعاً دائماً لتلبية الأمر .  
ولم يكن العقاب يعمل بالجندي المغولي المقصر وحده بل كان يشمل أهله  
ويسرى على قومه وعشيرته (١) . وهو عقاب وحشي رهيب . ولذلك  
كانت الطاعة العمياء أسلم الطرق للنجاة . ومن هنا برزت هذه الصفة  
في المحارب المغولي .

وقد رتب الجندي المغولي حياته على الحرب والقتال . وعن الجنود  
المغول من ولد وياغ وتروج وأنجب وهو في رحلة وسمر لم يستقر ولم  
يسكن الخضر (٢) .

وكان الجندي المغولي خشياً جليداً . إذا خرج للقتال حمل معه جرابه وفيه  
أسر الزاد لثمنه . والعليقة لفرسه . وكان قادراً على الصوم الطويل  
راضياً إذا أفطر بما يسد الرمق . كما كان يكفئ من الثياب بما يستر العزرة  
ولو كان رثا خلقاً (٣) .

ولم تكن الحرب صناعة الرجال وحدهم بل كانت المرأة المغولية تشارك  
فيها مشاركة فعالة . وكانت المرأة المغولية تحسن استخدام كافة الأسلحة  
من طعن بالرمح . وضرب بالسيف ، ورشق بالنبال . ولم يكن يمنعها  
من ذلك أقسى الظروف الطبيعية التي تتناوب المرأة . فإذا كانت إحداهن  
حاملًا وحانت ساعة وضعها تنحت جانباً من الطريق ، وتزلت عن دابتها ،  
ووضعت حملها ثم لفته وحملته معها ، وركبت دابتها . وأسرعت تلحق  
بقومها (٤) .

. . . . .

(١) نفسه : ص ٢٤٣

(٢) نفسه : ص ٢٣٩

(٣) نفسه : ص ٢٤٣

(٤) عجائب المتنور : ص ٢٣٩

وبمجرد أن مات تيمور بدأ العثمانيون والجلاليريون والتركان في استرداد ممتلكاتهم التي كان قد سلبها منهم تيمور . ومع أن خلفاءه سيطروا على شمال إيران لمدة قرن الا أنهم لم يستطيعوا مواجهة القوة الجديدة الناشئة ، قوة الصفويين .

وكانت المنازعات بين خلفاء تيمور سبباً في القضاء على الدولة . وقد استطاع شاهرخ أن يقف في وجه المطامع والمنازعات لمدة . وكان شاهرخ أعظم أبناء تيمور لنك واستطاع من هراة أن يحكم إيران وأواسط آسيا لمدة نصف قرن تقريباً . وربما ساعد شاهرخ وأكسيه خبرة بالحكم أنه قضى ثمانى سنوات في عهد والده يشترك معه في حكم ممالك خراسان وتوفى سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م في نيشابور .

وعندما قتل ألق بيك سنة ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م استباح التركان هراة ، واستباحت قبائل الأريك (الشيبيانيون) سمرقند (١) .

أما من جاء بعد ذلك من أمراء هذه الأسرة فقد كانوا يعيشون في شجار حتى انتهى أمرهم ولم يستطيع خلفاؤه أن يحافظوا على كيان المملكة أمام الصفويين في إيران والشيبيانيين فيما وراء النهر .

ويمكن أن نعتبر أن نهاية هذه الدولة اقتزنت بنهاية عهد أبي سعيد ٨٥٥ - ٨٧٢ هـ / ١٤٥٢ - ١٤٦٧ م . وكان لأبي سعيد هذا أحد عشر ولدا أشهرهم بابر الذي رحل إلى الهند ، وأسس هناك سلطنة مغولية إسلامية كان لها شأن عظيم في تاريخ الإسلام بالهند .

وكما انتهت الدولة المغولية الأولى في إيران وهي دولة الإياخانيين بموت أبي سعيد فكذلك يمكن تأريخ نهاية دولة التيموريين بنهاية عهد أبي سعيد .

(١) سايكس : ص ٧٠

## ١٠ - الأتراك والحضارة الإيرانية ؛

اختلف رأى العلماء فى موقف الأتراك من الحضارة . وقسا فريق من هؤلاء العلماء عليهم . ومن هؤلاء جوستاف لوبون الذى يذكر ان عظمة الأتراك لا تتجلى فى غير الحرب ، وأنهم وإن كانوا قد استطاعوا أن ينشئوا دولا كبرى الا أنهم عجزوا عن خلق حضارة أو ابتكارها . ويذكر أن أفضى ما استطاع هؤلاء الأتراك هو أن يستفيدوا من حضارة غيرهم كالعرب وحتى هذه الحضارة العربية تسرب اليها الضعف والانحطاط عندما أصبحت مقاليد الأمور فى قبضة هؤلاء الأتراك . وعندما انتصر السلطان سليم على المصريين وجعل من مصر ولاية عثمانية أسرعت العلوم والفنون إلى الانحطاط (١) ويقول جوستاف لوبون فى موضع آخر ( لكن الترك وإن كانوا أهل حرب وقتال لم يكونوا أهلا ليصعدوا فى سلم الحضارة ولم يقدروا على الانتفاع بتراث العرب المغلوبين الثقافى فضلا عن إيمانهم . قال العرب : لا ينبت العشب على أرض يغطاها الترك . والحق أنه لم ينبت فسترى فى فصل آخر درجة الانحطاط التى هبطت اليها دولة العرب القديمة بين أيدي السادة الجدد» (٢) .

ويقف بروكلمان منهم نفس الموقف إذ يقول إن الأتراك قد ألحقوا بحضارة إيران والعراق أكبر الأذى . وجاء من بعدهم أنسابوهم المغول . أو التار فقتضوا على البقية الباقية من تلك الحضارة (٣) .

أما رأى تولدكه فقد عرض له بارتولد فى كتابه عن تاريخ الترك فى آسيا الوسطى . وذكر بارتولد ان نولدكه قد بالغ كثيرا حين وصف العنصر التركى بأنه عدو للحضارة . ويرى نولدكه أن استيلاء الترك على بلاد الدولة السامانية كان أفدح مصيبة حلت بتلك البلاد . ويبدو أن هذا الرأى كان مسيطر أعلى نولدكه إذ كرره فى كتابه عن الإسلام Der Islam

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٧٠٠ ترجمة عادل زعتير ط ثانية

(٢) نفس المصدر : ص ١٨٢

(٣) بروكلمان : الامبراطورية الإسلامية وانحلالها : ص ٢٥٣ الترجمة العربية بيروت ١٩٤٩

وقال إن سيطرة الترك على بلاد العالم الاسلامى بعد القضاء على اندولة السامانية الايرانية كان نكبة هائلة فى التاريخ .

ويدافع بارتولد عن الأتراك فى أكثر من موضع ويخالف تولدكه فى رأيه ، ويضرب على ذلك مثلاً خوارزم فإنها لم تكن فى القرن الثالث عشر أى فى عهد الحكم التركى أقل حضارة عما كانت عليه فى القرنين العاشر والحادى عشر أى قبل الحكم التركى . ويعتبر بارتولد أن ازدياد انتشار المذهب المعتزلى فى خوارزم بعد غزو المغول - وهو المذهب الذى يقوم على إعمال الفكر والعقل - دليل على أن الحياة الفكرية والعقلية فى خوارزم لم تصب بالعمى خلال حكم الترك . وفى موضع آخر يذكر بارتولد أن تقدم الشعوب أو تأخرها لا يمكن أن ينسب لجنس بعينه أو لمعتقدات دينية أو لظروف بيئة طبيعية معينة . ولا يمكن - فى رأيه - أن تكون هذه العوامل سبباً فى حضارة شعب أو تأخره . ويعتبر بارتولد أن الاتصال بين الشعوب والأجناس ، وتبادل العلاقات من أكبر عوامل البرقى ، وأن العزلة من أكبر عوامل التأخر . وإذا كان الجنس الهندى الأوربى (١) قد تفوق على غيره من من الأجناس فما ذلك الا لأنه على علاقات أكبر بغيره من الأجناس . وتلعب التجارة هنا دوراً هاماً فى الموضوع . والذى يسيطر على التجارة وعلى تبادل السلع بين شعوب العالم يضمن لنفسه تفوقاً أكبر . ولو أن هذه الأقوام التى تنسب إلى الجنس الهندى الأوربى عاشت فى عزلة عن العالم لظلت إلى اليوم متأخرة . وحينما كان المسلمون يسيطرون على طرق التجارة كان لهم التفوق على العالم المسيحى . ومنما تكن المزاياء التى تتمتع بها أوروبا من حيث موقعها الجغرافى ، وطبيعة بلادها فإنها لم تكن لتؤدى إلى تفوق أوروبا ما لم تهتم أوروبا بتنمية علاقاتها المدنية بالعالم . وخلاصة ما يراه بارتولد أن رقى الأمم لا يعود إلى الجنس أو الدين أو البيئة وإنما يعود إلى علاقاتها بغيرها من الأمم . هذه العلاقات التى يلعب الاقتصاد فيها دوراً هاماً (٢) .

(١) المعروف أن هذا التعبير يطلق على وحده لغوية معينة

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٧ ترجمة حمزة طاهر

ويبدو أن العلماء الذين نسبوا إلى الجنس التركي الوقوف في وجه الحضارة أو القضاء عليها قد ظلموا هذا الجنس . ويباؤ أيضاً أنهم تأثروا بالنظائير التي ارتكبتها المغول في غزواتهم على العالم الإسلامي ، تلك الغزوات التي قضوا فيها على كثير من معالم الحضارة بل ومعالم الحياة نفسها . ونسى هؤلاء العلماء أن الأتراك الذين فعلوا هذا كانوا يعيشون قبل ذلك في مواطنهم في عزلة تامة ، وأنهم في ذلك الوقت عندما غزوا العالم الإسلامي كانوا يمارسون اتصالهم بالعالم الخارجي لأول مرة ، وأنهم لم يفهموا في أول الأمر - وهم قبائل رحل - معنى هذه الحضارة . بدليل أنهم بعد ذلك عندما اتسعت دائرة اتصالهم بالعالم الخارجي ، وازدادت صلاتهم بغيرهم من الأقوام الأخرى كالإيرانيين والعرب عرفوا معنى الحضارة وأسهبوا بنصيب في ازدهارها . وقد أثرت الحياة الإسلامية بمعتمدياتها وآدابها العربية والفارسية تأثيراً كبيراً فيهم .

ولكن نوضح الأمر ينبغي أن نذكر موقف الأتراك من الحضارة الإسلامية . وهذا موضوع طويل يحتاج وحده إلى مؤلف ضخم . وبكفينا هنا في هذا الفصل الختامي الموجز أن نشير بإشارات سريعة إلى حالة الحضارة الإسلامية في فروعها المختلفة في ظل الحكيم التركي في إيران .

وأبرز موضوع يعيننا هنا من موضوعات الحضارة الإسلامية في إيران هو الدين الإسلامي نفسه - إذ هو قوام تلك الحضارة - وموقف الحكم التركي منه .

انتشر الإسلام بين القراخانيين في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين نتيجة لسيطرة الدولة الإيرانية السامانية الإسلامية على أواسط آسيا . وفضلاً عن هذه السيطرة السامانية وما فرضته على بلاد الأتراك من انتشار الإسلام والحضارة الإيرانية فقد كان هؤلاء البدو قبائل بعيدة عن التحضر ، ولم تكن تستغني عن الاتصال بجيرانها الإيرانيين المتحضرين للدواعي التجارية .

ويذكر بارتولد عن هؤلاء القراخانيين أنهم كونوا أول مملكة تركية

إسلامية وأنهم عندما أسلموا حسن إسلامهم وكانوا أشد حرصاً عليه  
وتمسكاً بشعائره من غيرهم من الحكام المسلمين في غرب آسيا (١) .

وكانت الدولة الغزنوية أولى الدول التركية التي حكمت لإيران . ودور  
السلطان محمود في نشر الإسلام وتوطيد دعائه في بلاد الهند مشهور في  
التاريخ . وقد بلغت غزوات محمود في بلاد الهند اثنتي عشرة غزوة بين  
سنوات ٣٩٢ - ٤١٥ هـ / ١٠٠١ - ١٠٢٤ م . ويذكر ابن الأثير أن الدافع  
الذي دفع هذا السلطان لغزو الهند أول الأمر كان التقرب إلى الله والتكفير  
عما كان منه من قتال المسلمين (٢) . ولا شك في أن محموداً بعد أن غزا  
الهند أول مرة أدرك ضعف تلك البلاد ودرجة ثرائها فأغراه هذا بمثابة  
الفتح والغزو . وكان في كل غزوة يعود محملاً بالغنائم . ويهيمه ابن الأثير  
بأنه كان محباً للمال فيقول عنه : لم يكن فيه ما يعاب إلا أنه كان يتوصل  
إلى أخذ الأموال بكل طريق . ويستشهد على هذا بحادثة صغيرة مؤداها  
أن محموداً اتهم رجلاً غنياً بأنه قرطبي ليتوصل إلى أخذ ماله . ولما افتدى  
الرجل نفسه بالمال برأه محمود من تلك التهمة (٣) . ولا أدري كيف أجاز  
ابن الأثير إطلاق هذا الحكم العام عن محمود الغزني لحادثة فردية كهذه  
يحتمل أن تنهار وقائعها عند التعميق الدقيق . وفي تاريخ محمود من الوقائع  
العامية المسلم بها تاريخياً ما يناقض هذه الدعوى . وأوضح مثل لهذا ما فعله  
عندما استولى على بيت أصنام الهنود الذي كان فيه معبودهم الأكبر «سومنا»  
فإنه عندما هم بتحطيم هذا الصنم فرع الهنود . وأسرعوا إليه يفتنون معبودهم  
بكل غال ونفيس لديهم ، وقدوا إليه الإيحصى من الأهوال والنشائس  
لكي يترك لهم معبودهم . وكانت هذه الأهوال المعروضة من الضخامة  
بحيث أغرت أعوان محمود فنصحوه بأن يقبل العرض ويترك الصنم .  
وكان في إمكانه أن يقبل ولكنه رفض وصمم على تحطيم الصنم . أفهذه

(١) يارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٨٤

(٢) ابن الأثير : حوادث سنة ٣٩٢

(٣) نفسه : حوادث سنة ٤٢١

الحادثة أبلغ في الدلالة على شخصية محمود أم تلك الحادثة الفردية الصغيرة التي رواها ابن الأثير وبنى عليها حكمه ١؟

وكان محمود يميل إلى دراسة الفقه . وتذكر بعض المصادر اسمه بين الفقهاء . وفي بعض المصادر أنه ألف كتاباً في الفقه ؟ (١) وإلى جانب الفقه كان ولوعاً بعلم الحديث . وكثيراً ما كان يحقّد المجالس لسماع الأحاديث من الشيوخ كما كان يدعو العلماء من أتباع المذاهب المختلفة إلى مجلسه للمناقشة والمناظرة (٢) .

وقد جعلت انتصارات محمود في غزواته الدينية في بلاد الهند منه بطلاً شعبياً تروى عنه القصص وتنظم فيه الأشعار . ويبدو الباعث الديني واضحاً في نظم الأشعار التي قيلت في مدح السلطان .

• • •

وكان الأتراك السلاجقة هم أيضاً غيورين على الدين الإسلامي . وقد اتخذوا المذهب الحنفي مذهباً لهم كما كان يفعل السامانيون . وقد نشر هؤلاء السلاجقة راية الإسلام في غرب آسيا وانتصروا في صراعهم مع بيزنطة . وكان البيزنطيون قد انتهزوا فرصة الخلاف الذي وقع في العالم الإسلامي بين السنة والشيعة والذي بلغ مداه في عهد الدولة البويهية فاستولوا على بعض البلاد في سوريا وبن التهرين . وعندما صار الأمر كله في يد السلاجقة لم يسترد المسلمون ما فقدوه فحسب بل إنهم نشروا الإسلام في العالم البيزنطي .

ومنذ أن سيطر السلاجقة على آسيا الصغرى أخذت تلك البلاد تتأثر بالحياة التركية . وكان المجتمع هناك مكوناً من عناصر أهمها عنصر الأتراك الحاكمين ، وعنصر الإيرانيين الذي كان منتشرأ هناك ، ثم السكان الأصليون الإغريق . ولم يكن هناك خلاف بين المسيحية والإسلام . وكان المسيحيون

(١) شبلي النعماني : شعر العميم : ٣٥/١ الترجمة النارية لفخر كيلاني

(٢) ابن خلكان : ١١٠/٢

والمسلمون يعيشون في وفاق . وانتشرت الحضارة الإيرانية في آسيا الصغرى باعتبارها الحضارة التي صادفها الأتراك السلاجقة في رحلتهم من الشرق إلى الغرب ونقلوها معهم عندما انتقلوا إلى آسيا الصغرى .

ولا ينبغي أن ننسى دور السلاجقة في كفاح الصائبيين . وكان خلفاء هؤلاء السلاجقة - وهم الأتراك العثمانيون - دور كبير في الفتح التي قاموا بها في أوروبا ونشروا الإسلام .

ولا داعي هنا لتفصيل موقف السلاجقة من الإسلام وحمائته من الضالين والمضلين ، فقد أشرنا إلى هذا من قبل وبيننا كيف كان وزيرهم نظام الملك يسعى جاهداً بتأييد من السلطان السلجوق للقاء على الفرق المتعددة التي تعمل للكيد للإسلام والنيل منه .

المهم أن ننظر الآن في موقف التتار أو المغول من الإسلام باعتبارهم أشد فروع الأمة التركية إضراراً بالعالم الإسلامي وحضارته . وهم الذين نسبت وحشيتهم إلى الجنس التركي كله حتى اعتبره بعض المؤرخين والعلماء - كما مر من قبل - نقمة على الحضارة البشرية .

إذا بدأنا بزعم هؤلاء المغول وجدنا أنه لم يتعرض لدين أحد . وكفل لأهل الملل على اختلافهم حريتهم الدينية . ولم يعتنق هوديناً من الأديان (١) .

أما في إيران نفسها حيث حكم هولوكو وذريته الذين يعرفون بالایلخانيين فإن الموقف تجاه الإسلام كان يختلف من ملك إلى آخر حتى عهد غازان حين استقر الأمر للإسلام .

فهولوكو مثلاً ٦٥٤ - ٦٦٣ هـ / ١٢٥٦ - ١٢٦٥ م كانت زوجته الكبرى مسيحية من قبيلة قرابت الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية . وكان

(١) تذكر بعض المصادر أنه كان على دين البوذية (غزوى ٢٥٢/١)

لذا السبب يعطف على المسيحية وله علاقات طيبة مع البابا اسكندر الرابع  
الذى أرسل اليه في سنة ١٢٦٠/٥٦٥٨ م يشجعه على اعتناق المسيحية .

وكان أباقاخان في الحادية والثلاثين من عمره عندما تولى الحكم . وقد  
شجعت العناصر المسيحية وآزرته حتى تولى العرش . وتزوج من إحدى  
المسيحيات (ماريا ابنة ميشيل باليولوجوس) . ولهذا كانت صلته طيبة مع  
المسيحيين . وبشير إلى هذا خطاب ادوارد الأول ملك إنجلترا إلى أباقاخان .  
وفي هذا الخطاب إشارة غامضة إلى عمليات يراد القيام بها في فلسطين .  
ولكن أباقاخان لم يستطع أن يتخذ شيئاً فقد اختتمت آخر الإمارات الصليبية  
في سوريا في ذلك الوقت . كما أنه لم يستطع أن يتف في وجه المماليك .  
وسرعان ما انتهى عهده بعد ذلك (١) . وكان أباقاخان على تفاهم تام  
مع البابوات وتبادل الرسائل مع أربعة منهم وهم كليمنت الرابع ، وجريجورى  
العاشر ، ويوحنا السادس والعشرون ، ونقولا الثالث . وقد حاول هؤلاء  
البابوات أن يدفعوه إلى اعتناق المسيحية . وقد اختلط في هذه الرسائل الطابع  
الدنيى بالطابع المياسى (٢) ولا شك في أن المساعي المشتركة بينهما كان  
هدفها تمييز خطة سياسية دينية معاً لتقضاء على الإسلام والمسلمين .

وجاء بعد أباقا أخوه الذى أراد أن يخدع المسلمين والمسيحيين معاً  
معاً فبينما كان اسمه الحقيقي نيقولا تراه يسمى نفسه عند ارتقائه العرش أحمد  
ولم يستطع نيقولا أو أحمد هذا أن يرضى الفريقيين . ولم يطل عهده اذ عزل  
بعد فترة وجيزة وحل محله ابن اباقا الأكبر وهو أرغون ٦٨٣ - ١٢٩٠ /  
١٢٨٤ - ١٢٩١ م .

وكان أرغون طرازاً جليداً ففى عهده ارتفع شأن اليهود بزعماء كبيرهم  
سعد الدولة الأبهري . وأصله من أهر كما يدل لقبه وأكنه عاش في مدينة  
بغداد مدة حيث خالط العرب والترك وبرع في عدد من اللغات . واشتغل

(١) سايكس : ص ٦٣

(٢) براون : ١٨/٣

بعد ذلك بمهنة الطب إلى أن استطاع أن ينتظم في سلك أطباء أرغون (١) .  
وحكم أرغون إيران حوالي سبع سنوات سيطر في خلالها وزيره اليهودي  
سعد الدولة . وينسب إليه المسلمون أنه هو الذي وضع كل الخطط التي  
كانت ترمي لقمصاء على الإسلام (١) .

أما بيدو (٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م) فقد كان ميالا إلى المسيحية يفضلها على  
الإسلام وربما كان هذا سبباً من أسباب قتله .

أما غازان خان (٦٩٤ - ٧٠٣ هـ / ١٢٩٥ - ١٣٠٤ م) فهو من  
الشخصيات البارزة حقاً في تاريخ الإسلام . وكان إسلامه نصراً للدين  
فانه على أثر إسلامه دخلت القبائل المغولية في الاسلام ، وجعل الإسلام  
دين الدولة الرسمي . ويقال إن الذي زين الإسلام لغازان الأمير نوروز  
وكان من كبار شخصيات المغول وحكم كثيراً من المقاطعات الايرانية  
لمدة تسع وثلاثين سنة في عهد جنكيزخان وخلفائه . ويروي أنه عندما  
نشب القتال بين غازان وبايدو طنب نوروز منه أن ينذر لله أن يعتنق الإسلام  
إذا انتصر . وقد وفي غازان فعلاً بهذا النذر ، ففي ٤ من شعبان سنة ٦٩٤ هـ /  
١٩ من يونيو ١٢٩٥ أعلن هو ومعه عشرة آلاف مغولي دخولهم في الإسلام  
وبعد أن أسلم عهد إلى نوروز بإبادة كل معالم الكفر في تبريز . وفي نوفمبر  
سنة ١٢٩٧ استخدم الأمراء المغول العمامة بدلا من لباس الرأس القوي  
الذي كانوا يستعملونه . وبدأ غازان يدخل على المجتمع المغولي تغييرات  
جديدة تكسيه الطابع الاسلامي . فغير النقوش على العملة بما يتفق مع العهد  
الجديد ، وأمر بهدم الكنائس المسيحية والمعابد البوذية في إيران . ولم يقو  
رهبان الشامانية أو البوذية على تحدى المسلمين بعد ذلك ، وأخلت البيع  
والمعابد مكانها للمساجد (٢) . وخير كهنة المغول المقيمين في إيران بن  
الإسلام أو الرحيل عن البلاد أو التعرض للقتل . وبسبب تعصبه للإسلام

(١) خوافمير : دستور الوزراء ص ٢٩٦

(٢) راجع ص ٦٥ من هذا البحث

(٣) براون : ٤٤/٣

دبر له أعداء الإسلام من أشراف المغول وزعمائهم مؤامرة لقتله انتهت بالفشل وبمقتلهم هم . ولكي يفرق بين أتباع كل دين أمر النصارى أن يشدوا الزنار في أوساطهم واليهود أن يضعوا خرقة صفراء في عنائمهم (١) .

وكان غازان خان شيعياً . وقد أبدى اهتمامه بالشيعية في أكثر من مظهر إذ حفر قناة من نهر الفرات إلى قبر الامام علي بالنجف كما أنه حول أراضي كربلاء القاحلة إلى أراض خصبة ، وبني في المدن الكبرى كثير من دور الضيافة لاقامة أبناء علي . وسماها دور السيدات . وكان يسخو في الانفاق عليهم من أموال الأوقاف ويكثر من التردد على قبر علي والحسين (٢) .

أما الجايو محمد خدابنده (٧١٣ - ٧١٦ هـ / ١٣٠٤ - ١٣١٦ م) فكان يثق في أحد الفقهاء وهو جمال الدين بن مطهر ، فزين له مذهب الرافضية ، وأفهمه أن أبا بكر وعمر إنما كانا وزيرين لرسول الله ، وأن علياً هو الذي يرث الخلافة . وشبه له الأمر بما هو حادث بين الملوك الذين يتوارث أبنائهم عنهم الملك ، وأن وزراءهم لا يحق لهم أن ينازعوهم الملك ، وكان خدابنده قريب عهد بالإسلام فاقنع بهذا الكلام ، وكتب إلى الأقاليم يحمل الناس على الرفض فأجابه بعضهم ورفض بعض آخر كأهل بغداد وشيراز وأصفهان . ولم يستطع أن يفرض الرفض على الناس فرجع عنه بعد ذلك (٣) وقد نقل بعض المؤرخين أن اسم السلطان خدابنده (عبد الله) . ولما تشيع وحاول أن يفرض التشيع على الناس سماه أهل السنة «خربنده» (عبد الحار) تحقيراً له (٤) .

وفي عهد الجايو خدابنده حاول بعض الأمراء أن يصر فوه عن الإسلام ، ويعيدوه إلى دين أجداده الأولين . ولكنهم لم يفلحوا . وربما كانت هذه المحاولة هي آخر مظهر من مظاهر الوثنية المغولية في إيران .

(١) تاريخ العراق بين احتلالين : ٣٦٨/١

(٢) مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ٣١

(٣) ابن بطوطة : ص ١٥٦

(٤) تاريخ العراق بين احتلالين : ٤٠٩/١

وبعد وفاة خدابنده تولى السلطان أبو سعيد بهادر خان (٧١٦ - ٨٧٣٦ / ١٣٠٤ - ١٣١٦ م) . وفي أيام هذا السلطان كان قدوم ابن بطوطه إلى بلاد ايران في أوائل عام ٧٢٣ هـ .

أما تيمور فلم يكن له في الحقيقة من الإسلام سوى اسم . وكان كما يقول ابن عربشاه معتقداً للقواعد الجذكيزخانية (قواعد الياسا) يعمل بها وينفذها مع ما فيها من مخالفة للشرعية الإسلامية . ولذلك فإن بعض العلماء وأئمة الإسلام قد أفتوا بخروج تيمور على الشرعية وكفروه (١) . ومع هذا فقد كان يواظب على سماع التواريخ وقصص الأنبياء عليهم السلام بالفارسية لجهله بالعربية (٢) . وكما كان عسكر تيمور يضم خليطاً من عبدة الأصنام والمجوس وغيرهم من أصحاب المعتقدات المختلفة فقد كان يضم كذلك عدداً من العباد الصالحاء والزهاد الأتقياء . ويتضح مما كتبه ابن عربشاه أن تيمور كان يحرص على اصطحاب هؤلاء العلماء والزهاد معه وأنه كان يصطنع الحيلة معهم ليغريهم بملازمة عسكره (٣) .

وفي عهد تيمور ظهرت الطريقة الصوفية المعروفة بالنقشبندية .

وبما يذكر لتيمور بالخير أنه قتل نضل الله التبريزي أحد المبدعة وصاحب الجروفيية . وكان قد ظهر في أبياه وزعم مزاعم كثيرة تهدف إلى إفساد الدين . ودعا تيمور إلى بدعته فقتله . وأمر شاه رخ بعد ذلك بطردهم من البلاد قبل أن يتشرى فسادهم .

\* \* \*

أما موقف الأتراك من بقية ألوان الحضارة كالعلم والأدب والفن فهذا ما نعرض له هنا بمجرد عرض سريع لتكميل الخطوط الرئيسية اللازمة في تحديد الصورة العامة .

وأول هؤلاء الأتراك الذي حكموا إيران الغزنويون . وكان السلطان

(١) عجائب المقثور : ص ٢٢٠

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) نفس المصدر : ص ٢٤١

محمود الغزني حريصاً أشد الحرص على رعاية العلم والأدب والقرآن في مملكته . وكان يعزى العلماء والأدباء بالانتقال إلى بلاطه . وكان يرى أن بلاطه وهو أعظم البلاطات الموجودة في ذلك العصر وأعلاها شأنًا أحق بأن يجتمع فيه من العلماء والأدباء ما يفوق به غيره . ولا شك في أن بعض الأمراء المحليين كانوا يستجيبون إلى محمود تمامًا وخوفًا منه فيوفدون إلى بلاطه من يرى إيفاده من علمائهم وأدبائهم . ولكننا لم نعرف أنه استخدم في سبيل ذلك القوة . محدثنا نظامي العروضي السمرقندي عن بلاط أبي العباس مأمون ملك خوارزم ومن اجتمع فيه من العلماء والفضلاء . ويذكر أن السلطان محموداً حين سمع باجتماع هؤلاء العلماء لدى البلاط المأموني كتب يطلب إيفاد بعضهم إليه ليزدان بهم بلاطه . وقد قبل بعضهم بالفعل فورد على البلاط الغزني أبو نصر العراق وكان من علماء الرياضيات ، وأبو الخير الخوارزمي وكان ممن برعوا في الطب ، وأبو ربحان البيروني وهو من الشخصيات العلمية البارزة في علم النجوم . بينما رفض ابن سينا وأبو سهل المسيحي من أهل الحكمة القدوم إلى بلاط السلطان محمود . وكان محمود يستطيع أن يتعقبهما ويجبرهما على ملازمة بلاطه ولكنه لم يفعل . وكان يعتبر أن إعراض ابن سينا خسارة كبيرة لبلاطه (١) . وانتهت رحلة ابن سينا بعد خروجه من بلاط خوارزم إلى بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير حيث لقي الرعاية والترحيب هناك . أما المسيحي فقد لقي حنقه في الصحراء أثناء هبوب عاصفة رملية .

وكان محمود نفسه شاعراً ، وقد نسبت إليه أشعار مختلفة في الغزل والثناء والبطولة . وتورد كتب التذكار ما بقي له من هذه الأشعار . وقد انبغى حوله عدد كبير من الشعراء كان كبيرهم العنصرى الشاعر المعروف .

وكما فعل السلطان محمود في بلاطه بغزنه من رعاية العلم والعلماء

(١) جهار مقالته : الحكاية الخامسة من المقالة الرابعة .

والأدباء كان الأمراء المخليون يتنافسون بدورهم في اجتذاب أهل العلم والأدب . ومنهم في نيشابور أبو المظفر نصر - أخو السلطان محمود - . وكان أبو المظفر هذا يهتم بأهل الأدب والعلم حتى اجتمع منبه في بلاطه عدد كبير مدحوره . حياته وراثه في ماته بالكثير من الأشعار (١) .

\* \* \*

وأما في عهد المغول فيلاحظ براون (٢) أنه على الرغم مما عانته البلاد من قتل العلماء ، وتخريب المكتبات ودور العلم الا أن العلم مع ذلك لم يقض عليه . وكانت بعض فروع العلم أحسن حفظاً من بعضها الآخر . فبينما أهمل المغول الاهتمام بالدراسات الخاصة بالفلسفة أو العقيدة أو توجيه العناية إلى الشعر نراهم يهتمون ببعض فروع العلم الأخرى كالطب والتنجيم والتاريخ وكان للتاريخ مكانة ممتازة في قلوبهم فتد كانوا يرون أن هذا الفرع من العلم هو الذي يحفظ أخبارهم ويخلد ذكركم .

وكان تيمور - كما أشرنا من قبل - يكتر من الاستماع إلى التواريخ . وسير الملوك حتى حفظها من كثرة التكرار . ولذلك كان إذا أخطأ أحد أمامه في بعض المعلومات التاريخية رده إلى الصواب بينما لم يكن يهتم بالشعراء . ومن المعروف عنه تخريبه قبر الفردوس صاحب الشاهنامه . وتنقل بعض المؤلفات أن تيمور قال على قبر الفردوس هذا البيت :

سر ازكور برادر وايران بين

ز دست دليران توران زمين

. ومعنى هذا البيت : أخرج رأسك من القبر وأنظر إلى ايران وما يعانیه شعبها على يد أبطال الوريانيين . وهذا البيت يصور نقمة التورانيين على الإيرانيين وشعور العداوة المتبادل بينهما . ولكن يبعد أن يكون تيمور

(١) العتي : ٢٣٠/١

(٢) براون : ١٦/٣

هو صاحب هذا البيت فقد عرف عنه أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ومن  
المستبعد أيضاً أن يكون موهوباً في الشعر دون أن تشير إلى ذلك المصادر .

على كل حال كانت المؤلفات التاريخية في العهد المغولي تحتل مكان  
الصدارة . وفي الفصل الثاني من الجزء الثالث من كتاب براون عن تاريخ  
الفرس الأدبي ( تاريخ أدبي لفرس ) A literary History of Persier  
تفصيل واف عن المصادر التاريخية التي ألفت في عهد الایلخانيين . وكذلك  
في البحث الذي كتبه أستاذنا المغفور له الدكتور إبراهيم أمين الشواربي  
ونشره في مجلة كلية الآداب بالقاهرة المجلد السابع ١٩٤٤ وعنوانه «مصادر  
فارسية في التاريخ الإسلامي» .

وهذا بيان موجز لأهم المصادر التاريخية التي ألفت في هذا العهد :

تاريخ جهانكشا : لعطا ملك الجويني . أتمه مؤلفه سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠  
وتمتد حوادث هذا الكتاب إلى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ حين قضى هولوكو  
على الحشاشين . ويتحدث هذا الكتاب في الجزء الأول منه عن تاريخ  
جنكيزخان وخلفائه حتى جغتاي . وفي الجزء الثاني عن ملوك خوارزم  
وعلى الأخص عن قطب الدين محمد وابنه جلال الدين . ويتحدث في الجزء  
الثالث عن طائفة الاسماعيلية وزعيمها الحسن الصباح . وعلى هذا فالكتاب  
لا يعتبر تاريخاً عاماً بل تاريخاً خاصاً بجنكيزخان وأسلافه وخلفائه . وقد  
التحق عطا ملك جويني بخدمة الديوان المغولي في عهد أرغون .

تاريخ وصاب : ويعد تكملة لتاريخ جهانكشا . ولهذا يحسن ذكره  
بعده مع أنه في الترتيب الزمني متأخر عنه . ألفه أبو عبد الله بن فضل الله  
الشيرازي في سنة ٧٢٨ هـ . واسمه بالكامل تجزية الأمصار وتزجية الأعصار  
وعرف اختصاراً باسم تاريخ وصاب . وهو خمسة أجزاء تتحدث عن سلاطين  
المغول حتى أيام السلطان أبي سعيد سنة ٧٢٨ هـ .

جامع النواريخ . ألفه رشيد الدين فضل الله في سنة ٧١٠ هـ . وكان

طبيعياً خاصاً لأباقاخان . وتولى الوزارة أيام غازان خان . وفي أيام السلطان  
أنى سعيد خدابنده ظل رشيد الدين يحتل أيضاً نفس المكانة المرموقة . ويتكون  
هذا الكتاب من :

الجزء الأول وفيه بابان : الأول عن تاريخ القبائل التركية والمغولية  
المختلفة . والثاني عن تاريخ جنكيزخان وأجداده وأحفاده حتى غازان خان .

الجزء الثاني وفيه مقدمة عن آدم والانبياء والرسل ثم

الباب الأول : عن ملوك الفرس والأقديس قبل الاسلام ويضم أربعة

فصول .

الباب الثاني : عن تاريخ النبي محمد صلى الله عليه وسلم والخلق الراشدين  
ومن بعدهم من خلفاء المسلمين أمويين وعباسيين حتى تحطيم الخلافة على يد  
المغول سنة ٦٥٦ ومن عاصدهم من الملوك والسلاطين كسلاطين غزنة ،  
والسلاجقة الخوارزميين ، السلفريين أتابكة فارس ، الاسماعيلية ، الأتراك  
والدهود ، والقرنج وملوكهم والبابوات والمنود مع مقالة طويلة عن  
الديانة البوذية .

تاريخ كزيده : لحمد الله المستوفى القزويني . وهو سليل أسرة عاشت  
في قزوين . وكان جده أمين الدين نصر مستوفياً على العراق وكانت نهايته  
على يد المغول . وتولى أخوه زين الدين محمد الشؤون المالية في قزوين ،  
وأهر ، وزنجان . وقد وصلنا من مؤلفات حمد الله هذا الثلاثة الآتية :  
تاريخ كزيده (مختار التاريخ) ، ظفر نامه (كتاب الظفر) ، نزهة القلوب  
والأول والثاني تاريخيان والثالث جغرافي .

ألف تاريخ كزيده في سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م وأهداه لابن رشيد الدين  
وهو غياث الدين محمد الذي تولى الوزارة في مايو سنة ١٣٢٨ ثم قتل بعد ذلك  
في مايو سنة ١٣٣٦ م . ويذكر المؤلف المصادر التي رجع إليها في تأليف  
كتابه ومن بينها سيرة ابن هشام ، قصص الأنبياء للتعالي ، والرسالة  
القشيرية ، وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار وتجارب الأئم لابن مسكويه ،

وتاريخ ابن جرير الطبري ، وتاريخ حمزة الأصفهاني ، تاريخ الكامل لابن الأثير ، زبدة التواريخ لجمال الدين أبي القاسم الكاشاني ، نظام النواريخ للقااضي البيضاوي ، عيون النواريخ لأبي طالب البغدادي ، المعارف لابن قتيبة ، تاريخ جهانكشا لعطا ملك جويني ، تاريخ العتبي ، سياست نامه .. الخ

ويتألف تاريخ كزیده من فاتحة ثم ستة أبواب يتضمن كل باب منها مجموعة فصول وخاتمة .

ظفر نامه : له أيضاً في سنة ٧٣٥ هـ . وهو منظومة طويلة في البحر المتقارب تتألف من ٧٥,٠٠٠ بيت . وتعد امتداداً لمنظومة الفردوسي الشاهنامة . وتبدأ ظفر نامه من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى زمن المؤلف .

روضة الصفا : لميرخواند . وهو من المصادر التاريخية المهمة . والمعلومات عن مؤلف هذا الكتاب قليلة وان كنا نعرف أنه مات في سنة ٩٠٣ هـ بالغاً من العمر ستاً وستين سنة . اتصل المؤلف بالأمير عليشير نوائي في هراه . وتألف روضة الصفا من سبعة أجزاء :

الأول : في بيان أول المخلوقات وذكر الأنبياء وملوك العجم .

الثاني : عن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين .

الثالث : في ذكر الأئمة وخلفاء بني أمية وبني العباس .

الرابع : في ذكر الدول الإسلامية التي نشأت في فارس إلى عهد تيمور

الخامس : عن المغول الإيلخانيين .

السادس : في تيمور وأعقابها إلى سنة ٨٧٣ هـ .

السابع : يتحدث عن السلطان حسين بايقرا المتوفى سنة ٩١٢ هـ أي بعد تسع سنوات من وفاة المؤلف مما يدل على أن شخصاً آخر قد كتب هذا الجزء . وترجع أهمية الجزءين الأخيرين من روضة الصفا إلى أن حوادثهما قد عاصرها المؤلف بنفسه .

حبيب السير في أخبار أفراد البشر : (٩٣٠هـ) ومؤلفه غياث الدين ابن همام الدين المعروف بخواندمير المتوفى سنة ٩٤١ هـ . وهو حفيد ميرخونند صاحب روضة الصفا الذي كان جده لأمه . التحق المؤلف كجده أيضاً بخدمة الأمير عليشير نوائى الذى كلفه بتأليف كتابيه مآثر الملوك وخلاصة الأخبار . أما حبيب السير فقد أهداه إلى حبيب الله ساوجى وزير دورمش خان حاكم هراة . ومن هنا جاء اسم الكتاب حبيب السير . وكان المؤلف من معاصرى الدولتين التيمورية والصفوية . وخصص المؤلف للشاه اسماعيل الصفوى الجزء الرابع من المجلد الثالث .

دستور الوزراء : له أيضاً (٩١٤ هـ) وهو يضمن أحوال وزراء الإسلام حتى زمان المؤلف .

\* \* \*

أما المؤلفات الأدبية التى ترجع إلى عصر المغول فكثيرة نشير منها إلى ما يأتى :

لباب الألباب : وهو من أقدم كتب التذاكر التى وصلتنا . أئنه عوفى سنة ٦١٨ هـ . وهو مجلدان الأول فى شرح أحوال الأمراء والسلاطين والوزراء والعلماء الذين شعروا بالنارسية ، والثانى فى أحوال وأشعار شعراء الفرس .

جوامع الحكايات : لعوفى أيضاً . انتهى من تأليفه سنة ٦٣٠ هـ وهو فى أربعة مجلدات . وقد جمع مادته من كثير من المصادر التى قرأها أو سمعها .

المعجم فى معاير أشعار العجم : أئفه شمس الدين محمد بن قيس الرازى فى سنة ٦٣٠ هـ .

أخلاق ناصرى : كتبه نصير الدين طوسى فى أصول الأخلاق والحكمة العماية . وقد أئفه باسم الملاك ناصر الدين أبى الفتح عبد الرحيم بن أبى منصور محشم قهستان من حکام عهد هولاکو .

كلستان : ( ٨٦٥٦ ) : وهو من أمهات كتب الأدب المنثور . ألفه  
سعدى وكبه في صورة المقامات وقصد به النصيحة والحكمة والتوجيه  
الخلقى . وقد كتبه سعدى في سن الخمسين كما يقول في ديباجة الكتاب .  
ويتألف الكتاب من ديباجة وثمانية أبواب .

تذكرة الشعراء : ( ٨٨٩٢ ) لدولت شاه بن علاء الدولة السمرقندى  
وفيه ترجمة لأكثر من مائة وخسين من شعراء الفرس . انتهى من تأليفه  
سنة ٨٩٢ هـ .

بهارستان : ( ٨٩٢ هـ ) تأليف مولانا نور الدين عبد الرحمن جامى .  
وهذا الكتاب على نسق كلستان سعدى . وفيه مجموعة من الحكايات ذات  
المغزى الخلقى . وقد ضم فيه مجموعة من الأشعار العربية والفارسية . ويمكن  
أن يقال إن بهارستان أحسن تقليد لكلستان .

ولجامى مجموعة أخرى من المؤلفات منها نقد النصوص في شرح  
الفصوص وهو في شرح وتفسير عقايد محيى الدين بن عربى مؤلف فصوص  
الحكم ومختصره نقش الفصوص . ومن مؤلفاته أيضاً نغمات الأنس وفيه  
شرح أحوال عدد كبير من الفضلاء والعلماء ومشايخ الصوفية . وأصل  
هذا الكتاب عربى من تأليف محمد بن حسن سلمى النيشابورى واسمه طبقات  
الصوفية . وقد أشار الأمير عليشير نوائى على جامى أن يترجمه إلى الفارسية  
ويكمله ويضيف إليه ترجمة العلماء جتى زمانه . ومن مؤلفاته أيضاً اللوايح ،  
اللوامع ، شواهد النبوة ، أسفة اللغات ، أنوار سهيلى .

• • •

ومن العلماء والمتصوفة الذين اشتهروا في العهد المغولى نصير الدين  
الطوسى ( ٥٩٧ - ٦٧٢ ) و زكريا القزوينى ( ٦٠٠ - ٦٨٢ ) والقاضى  
البيضاوى ( المتوفى ٦٨٥ ) وقطب الدين الشيرازى ( ٦٣٤ - ٧١٠ هـ )  
والقاضى عضد الايجى ( المتوفى ٧٥٦ هـ ) وقطب الدين الرازى ( المتوفى ٧٦٦ هـ )

\* \* \*

أما الشعراء فكثيرون ، نشير منهم إلى :

كمال اسماعيل الأصفهاني (متوفى ٦٢٥ هـ) وقد شاهد في أواخر أيامه بعض حوادث المغول الوحشية .

وجلال الدين مولوى بلخي (٦٠٤ - ٦٧٢) . وأشهر أعماله المنشورة الذي يتألف من ٢٦ ألف بيت . ويعد من أهم الآثار الأدبية في التصوف .

وسعدى شيرازي . وهو من مواليد شيراز وسليل أسرة دينية . وقام سعدى بكثير من الأسفار واستقر في النهاية بوطنه شيراز . وكان يتولى حكم فارس أبو بكر سعد بن زكي . وقد نهم إقليم فارس ومدينة شيراز بحالة من الأمن والاستقرار بفضل الصالح الذي عقده أبو بكر مع المغول فجنب بلاده بذلك الوبلات التي تعرضت لها بقية بلاد إيران على يد هؤلاء المغول المتوحشين . ويشير سعدى إلى الأموال التي كان يدفعها أتابكة فارس للمغول لانتقاء شرهم وإنقاذ بلادهم بقوله في البوستان :

سكندر بديوار روئين وسنك  
بكرد از جهان راه ياجوج تينك  
ترا سد ياجوج كفر از زرست  
نه روئين جو ديوار اسكندر ست

أي أنه إذا كان الاسكندر قد أقام سداً من النحاس والحجارة حول طريق ياجوج فان سدك الذي أقمته ضد ياجوج الكفر كان من ذهب ولم يكن من نحاس كسد الاسكندر . وهذا إشارة إلى الأموال التي كان يدفعها هؤلاء المغول لصدمهم عن إقليم فارس .

وكان سعدى من خاصة المقربين إلى ولي العهد سعد بن أبي بكر . ومن اسمه أخذ تخلصه . وكان سعدى موضع رعاية الأب والابن معاً . ولهذا أهدي سعدى اليهما كتابه البوستان والكلستان .

همام التبريزي (متوفى ٧١٤ هـ) . وكان يعيش في تبريز . وهو من أبرع شعراء الغزل في القرن السابع الهجري . وكان من المعجبين بسعدى . واليه يشير في هذا البيت :

همام را سخن دلفریب و شیرین است

ولی چه سود که بیجاره نیست شیرازی

أى أن هماماً له من الشعر كل عذب وجذاب زلكن ما الفائدة ؟  
إن هذا المسكين لبس شیرازی و يبلغ ديوان عزله قريبا من عشرة آلاف بيت .

شيخ محمود شيشترى : (متوفى ٧٢٠) وهو من أهل شيشتر آذربيجان  
وعاش في زمان الجايى وأبى سعيد . وكان يعد من كبار علماء و متصوفة  
عصره . و من آثاره مثنوى كلشن راز وهو في حوالى ألف بيت .

أوحدى مراغى : (متوفى ٧٣٨) وينسب إلى مراغه حيث ولد وإن  
كان قضى أغلب حياته في أصفهان . وفى النهاية عاد إلى وطنه في آذربيجان  
ولازم غياث الدين محمد بن رشيد الدين فضل الله الذى كان وزير أبى سعيد  
(٧١٦ - ٧٣٦) . وفى مراغة مات ودفن الشاعر . وبلغ ديوانه حوالى  
خمسة آلاف بيت تضم ألواناً مختلفة من الشعر كالتقصائد والغزليات والمقطعات  
وترجيع بند والرباعيات . و من آثاره مثنوى باسم منطق العشاق . وأشهر  
آثاره المثنوى المعروف باسم جام جم .

خواجه كرماني : (٦٧٩ - ٧٥٣) من أبناء كرمان وقد عرف بالشعر  
في شبابه وبدأ أولاً بمدح ملوك المظفرين . وجاء إلى شیراز في أواخر أيامه  
واتصل بالشيخ أبى اسحق اينجو ومدحه . و لخواجه ديوان شعر وخمس  
منظومات على غرار خمسة نظائى وهى :

- |                  |                          |
|------------------|--------------------------|
| ١ - های و همایون | قصه عشق                  |
| ٢ - کل و نوروز   | حكاية نخسردو شیرین نظائى |
| ٣ - روضة الأنوار | منظومة خلقية دينية       |
| ٤ - کمال نامه    | منظومة تصوفية            |
| ٥ - کهر نامه     | في الأخلاق والتصوف       |

وهناك غير هؤلاء الشعراء ابن عيين (المتوفى ٨٦٩) وسلمان ساوجي (المتوفى ٧٧٨) .

وحافظ شيرازي : من شعراء العهد التيموري متوفى سنة ٧٩١ هـ . وهو من شيراز . وكان أبوه قد هاجر إليها من أصفهان في زمن أتابكة فارس . وكان لا يزال طفلاً عندما توفى أبوه . ولم يصرفه كسب العيش عن الدراسة والتحصيل وحضور مجالس العلماء المشهورين في ذلك الزمان . وعندما حفظ القرآن تخلص بلقب حافظ .

وفي ملفولة حافظ كان يحكم إقليم فارس محمود شاه اينجو من قبل أبي سعيد بهادر . وعندما توفى بعث أبو سعيد الشيخ حسين حكم فارس ولكن الأهالي لم يحسنوا استقباله وثاروا عليه وولوا مكانه أبا اسحق أحد أبناء محمود شاه اينجو . وكان أبو اسحق هذا من أول من مدحهم حافظ لما أظهره نحوه من عطف ورعاية . واكن أبا اسحق لم يظل عهده إذ سلبه السلطة واستولى على فارس الأمير مبارز الدين محمد بن المظفر حاكم يزد . وقد أساء مبارز الدين السيرة مع أهل فارس واستبد بالناس ومال إلى سفك الدماء والظلم حتى ثار عليه ابنه (شاه شجاع ومحمود) وعزلاه وقتلاه . وتولى الشاه شجاع حكم فارس وأحسن إلى الناس .

وبعد الشاه شجاع تولى ابنه زين العابدين ولكن عهده لم يضل إذ وقعت حملة تيمور على فارس ، وفر زين العابدين ، وترك حكم فارس إلى الأمير منصور بن أخرى شاه شجاع . وقد بذل الأمير منصور جهده في تعمير فارس وصد هجمات تيمور وقد مدحه حافظ في بعض أشعاره ولكنه هزم في آخر الأمر وقتل على يد تيمور وانقرضت بمقتله سلسلة المظفرين سنة ٧٩٥ .

ويذكر دولتشاه أن مقابلة تمت بين تيمور حافظ بعد قتل الشاه منصور وفي هذه المقابلة لام تيمور الشاعر حافظ لأنه يريد أن يهب بمنتهى البساطة محبوبته مدينة سمرقند وبخارى من أجل خالها (طابع الحسن) وذلك حيث يقول

أكر آن ترك شیرازی بدست آرد دل مارا

بخال هندوبش بخشم سمرقند و بخارا (۱) .

وهذه القصة غير صحيحة ، ولم يرد لها ذكر في المؤلفات المعاصرة لتلك الأحداث التي أرخت لتيemor . وقد انفرد بذكرها دولتشاه وحده ، ومما يدل على زيفها أن دولتشاه يورخها في سنة ۹۷۵ بينما كان حافظ قد مات قبل ذلك بأربع سنوات .

وأشهر آثار حافظ ديوانه الذي يقرب من أربعة آلاف بيت ، ويضم فنوناً من النظم كالغزل والقصائد والرباعيات والمقطعات وترجيع بند وتركيب بند وبعض المثنويات . ولكن الفن الغالب على ديوانه هو الغزل .

جاي : وينسب إلى ولاية جام بخراسان ومنها اتخذ تخلصه . وبعد أن قضى في جام عدداً من سنى انطفوأة اتجه إلى هراة حيث درس هناك . وفي هراة اتصل بسعد الدين كشمغرى من زعماء الطريقة النقشبندية ، وأصبح واحداً من مريديه ، ثم صار هو زعيماً للطريقة بعد وفاة سعد الدين . وارتبط تاريخ جاي بشخصيتين عظيمتين هما : السلطان حسن بايقرا الذي كان يتولى الحكم في هراة ، ويهتم بالشعر والأدب . والأمير عليشير نوائى وزيره ، كان من علماء عصره وله تأليف بالفارسية والتركية .

ولجاي آثار مثورة ومنظومة . فن المنظوم ديوان أشعاره . وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام : سمي القسم الأول : فاتحة الشباب ، والثانى وساطة العقد ، والثالثة خاتمة الحياة . وقد نظم سبعة مثنويات أخرى يحاكي فيها منظومات نظامى . وهذه المنظومات السبع هي :

سلسلة الذهب منظومة دينية وخلقية

سلامان وأبال قصة قديمة تنطوى على أفكار تصوفية

تحفة الأحرار منظومة دينية

يوسف وزليخا

ليلي ومجنون

خردنامه سكهندرى

أنا مولفاته الثرية فقد سبقت الإشارة إليها

• • •

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الفنون المختلفة وجدنا أن هذا الجانب من جوانب الحضارة قد رعاه الحكام الأتراك في إيران .

فإذا بدأنا بالدولة الغزنوية وجدنا أن فن العمارة قد نال في عهدنا رعاية كبيرة بسبب الثراء والترف الذي عاش فيه البلاط للانتصارات المتوالية والغنائم الكبيرة التي غنمها جيوش السلطان في بلاد الهند . وبحملتنا العتيبي حاربنا طويلاً عن مسجد غزنه الجديد الذي بناه السلطان محمود . وكيف كان يغري العمال الذين اشتركوا في بنائه بالأجور والأموال طلباً للإجادة والإتقان ، وكيف نقل ما احتاجه البناء من الأخشاب من الهند والسند ، وكيف بالغ في تجميل المسجد وتزيينه حتى أصبح تحفة فنية رائعة (١) وكانت غزنة أو غزني عاصمة الدولة زينة المذائين في عصرها .

وفي أقصى عهود الحكم التركي في إيران وهي عهود المغول لم تمت الفنون المختلفة . وقد أشرنا فيما سبق إلى حرص هؤلاء المغول في فتوحهم على سلامة الصناع وأصحاب الحرف لينتفعوا بهم في أعمالهم الإنشائية . وقد أورد ابن عربشاه أسماء كثير من الفقهاء والعلماء والمحدثين والقراء والوعاظ والكتّاب والمنجمين والنقاشين والفنانين والشطرنجيين الذين اتصلوا ببلاط تيمور .

وعرف عن تيمور أنه كان شديد العناية بتزويد وطنه وعاصمته سمرقند بكل ألوان الحضارة ومقوماتها . وقد أنشأ بظاهر سمرقند من القصور والبساتين ما جعلها من أجمل بلاد العالم الاسلامي وقتذاك .

(١) العتيبي : ٢٩١/٢

وكما كان تيمور مولعاً بالحدائق فقد كان أيضاً مولعاً بالعمارة . بنى  
في سمرقند مدرسة دينية كبيرة باسم زوجته بينى خاتون . كذلك تعد  
مقبرته المعروفة باسم كورمير أى قبر الأمير من الأمثلة المعارية الرائعة  
في العهد التيمورى .

وكانت كوهرشد إحدى زوجات شاه رخ من المولعين بفن العمارة  
وقد أنشأت مسجد كوهر شاد المقام في مشهد .

وترجع مكانة غازان في التاريخ إلى الإصلاحات العظيمة التي قام بها  
كتنظيم الضرائب ، ونشر العدالة ، وإقامة المؤسسات العامة الدينية والثقافية .  
وكان غازان ولوعاً بفن العمارة كما كان يحسن عدداً من اللغات كالفارسية  
والعربية والصينية إلى جانب لغته الأم المغولية .

ويرجع إلى المغول الفضل في أنهم نشروا بإيران الحرير الصيني وأتاحوا  
الفرصة للإيرانيين ليحاكوه وينتجوا أنواعاً جديدة منه لقيت رواجاً في  
الأسواق الخارجية وعادت بالنفع على الإيرانيين .

وقد ظهر في عهد المغول نوعان من الخط ، أولهما الخط المعروف باسم  
تعليق في القرن السابع الهجري ، وثانيهما الخط المعروف باسم نستعليق .  
وهذا الأخير ينسب اختراعه إلى أحد كتاب تيمور هو مير علي التبريزي  
وابنه عبد الله . وقد تقدم فن الخط تقدماً عظيماً في عهد تيمور الذي شمل  
برعايته الخطاطين . وكان من مظاهر تقدم هذا الفن الاسلامي الجميل  
أن عدداً كبيراً من رجال الدولة كانوا من الخطاطين أمثال بدر الدين أحد  
وزراء تيمور ، وابراهيم ميرزا ، وبايستقر ميرزا من أحفاد تيمور(١).

وازدهر فن التذهيب في عهد المغول . وكان السلطان الجايتو يشجع  
أصحاب هذا الفن . وكان يعهد إلى الفنانين بتذهيب أعمال كثيرة . ويتضح

---

(١) زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الاسلامي ص ٣٤

تقدم هذا الفن من تلك النسخ العديدة المذهبة من القرآن، الكريم التي كانوا يقدمونها إليه (١) .

أما المنسوجات فقد بدأت تزدهر في إيران من عصر السلاجقة الذين حاولوا إلى إيران المنسوجات الصينية . ولا شك في أن صناعة النسيج في إيران قد تأثرت بالطابع الصيني بسبب هجرة القبائل التركية من الشرق واستمرارها في إيران . وكان لصناعة النسيج في العهد المغولي مراكز مزدهرة مثل هراة ونيشابور وتبيز و قم .

وكان فن التصوير في عهد المغول فناً إيرانياً ممتازاً . وكان كتاب جامع التواريخ من أول المخطوطات الفارسية التي زينت بالصور . ونالت الشاهنامه اهتماماً عظيماً من المصورين .

ولا ريب في أن الإفاضة في الحديث عن الفنون الإيرانية أمر لا تقتضيه هذا المقام .. ومن المناسب أن نقف عند هذا الحد لأن ما ذكرناه كله من ألوان الحضارة في ميادين الأدب والفن لم يكن مقصوداً لذاته ، ولا كان هدفاً لدراسة وإنما كان كله مجرد عرض سريع للتدليل على أن الحكم التركي في إيران لم يكن شراً كله لأنه لم يخل من حسنات .

ومن هذا نرى أن نولدكه وبروكلمان ولوبون في موقفهم من العنصر التركي والحضارة قد أطلقوا أحكاماً عامة تختلف مع الحقيقة في بعض التفاصيل .

---

Legacy of Persia P. 133 by D. Barrett. (١)

و الترجمة العربية لأحمد عيسى في تراث فارس ص ١٨١